الباب الرابع

أهداف الإسلام

١ - بناء الإنسان الصالح .

٢ - بناء الأسرة الصالحة .

٣ - بناء المجتمع الصالح .

٤ - بناء الأمة الصالحة .

٥ - بناء الدولة الصالحة .

٦ - الدعوة إلى خير الإنسانية .

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

بناء الإنسان الصالح

أول ما يهدف إليه الإسلام هو بناء « الإنسان الصالح » الجدير بأن يكون خليفة الله فى الأرض ، والذى كرمه الله أفضل تكريم ، وخلقه فى أحسن تقويم ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً ، فهو إنسان اكتملت فيه خصائص الإنسانية ، وارتفع عن حضيض الحيوانية البهيمية أو السُبعية ، وهذا الإنسان الصالح هو أساس الأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح ، والأمة الصالحة .

● **إنسان إيمان وعقيدة** :

وإنسان الإسلام هو - قبل أى اعتبار - إنسان إيمان وعقيدة ، قد اتضحت فكرته عن نفسه ، وعن العالم من حوله ، فهو ليس نباتاً (شيطانياً) كنبات البرية ، ظهر وحده من غير زارع زرعه ، ولا الكون من حوله برز وحده من غير خالق خلقه ومدبر دبره ، بل هو يؤمن أن له ربا خلقه فسواه فعدله ، وعلمه البيان ، ومنحه العقل والإرادة ، وأرسل إليه الرُّسُل ، وأنزل له الكتب ، وأقام عليه الحجة ، وعرفه الغاية ، والطريق .

كما أن هذا العالم البديع وراءه خالق عظيم ، خلق كل شىء فقدره تقديراً ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، ولكن الذى خلقه سيفنيه ، ويبدل به عالماً آخر ، هو عالم الخلود ، فيه توفى كل نفس ما كسبت ، وتجزى بما عملت ، وهم لا يظلمون .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ؟ (١) .

---

(١) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨

OBEIKAN.COM

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدُ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ (١) .

وبهذا عاش الإنسان المسلم مؤمناً بالله تعالى ، مؤمناً برسالاته ، بجميع كتبه ورُسُله ، وآخرها رسالة محمد ﷺ ، مؤمناً بلقائه تعالى وحسابه وعدالة جزائه ، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ (٢) .

إن هذا الإيمان هو أول ما يميز الإنسان المسلم ، فهو مؤمن بعقيدة جوهرها التوحيد ، ومعنى التوحيد : أنه لا خالق إلا الله ، ولا معبود إلا الله ، فهو يعني توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، ولا يغني أحدهما عن الآخر ، فقد كان مشركو العرب يؤمنون بأن الله هو وحده خالق السموات والأرض ، كما حكى عنهم القرآن : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ (٣) .

ومع هذا الإقرار بتوحيد الربوبية ، رأيناهم يعبدون مع الله ألهة أخرى ، بغير سلطان ولا برهان ، إلا دعاوى فارغة ، مثل قولهم : ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ (٤) .

﴿ وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ ﴾ (٥) .

والإسلام جاء دعوة تحريرية كبرى ، لتحرير الإنسان من كل عبودية لغير

---

(١) النساء : ٢٣ ، ٢٤ (٢) طه : ١٠٩ - ١١٢ (٣) العنكبوت : ٦١
(٤) يونس : ١٨ (٥) الزمر : ٣

OBEIKAN.COM

الله تعالى : من عبوديته للطبيعة ، وللأشياء ، فى الأرض كانت أو فى السماء ، ومن عبوديته للحيوان ، ومن عبوديته للشيطان ، ومن عبوديته للإنسان ، سواء كان ملكاً أم كاهناً ، بل من عبوديته لنفسه وهواه ، فلا يعبد إلا الله ، ولا يشرك به شيئاً . ولهذا كان يبعث النبى ﷺ برسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ويختم رسائله إليهم بهذه الآية الكريمة : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ ﴾ (١) .

❊ ❊

● **إنسان نسك وعبادة** :

وإنسان الإسلام كذلك ، إنسان نسك وعبادة ، فهو يعلم أن الكون من حوله خلق له ، أما هو فخلق لله وحده ، وبهذا أدرك غاية حياته ، وسر وجوده .

فعبادة الله وحده لا شريك له ، هى غاية غاياته ، فلها خلق ، ومن أجلها سخر له ما فى السموات وما فى الأرض . يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٢) .

إن المخلوقات يخدم بعضها بعضاً - كل جنس يخدم ما كان أعلى منه مرتبة ، فالجماد يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان ، فمن يخدم الإنسان ؟

الإنسان لم يخلق إلا لخدمة ربه وبارئه ، أى لعبادته ، وعبادته وحده ، دون إشراك أحد أو شىء من خلقه فى الأرض ، أو فى السماء .

---

(١) آل عمران : ٦٤ (٢) الذاريات : ٥٦ - ٥٨

OBEIKAN.COM

بهذا بعث الله الرُّسُل على مختلف العصور والأزمان : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ : أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

ومن هنا يجب الإنسان المسلم متعبداً لله تعالى ، مؤتمراً بأمره ، منتهياً عما نهى عنه ، جاعلاً خشيته وتقواه نصب عينه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

وتتمثل العبادة أول ما تتمثل في إقامة الشعائر الكبرى التي فرضها الإسلام وجعلها من أركانه العظام ، من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ثم ما يكملها من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن ، والتسبيح والتهليل والتكبير .

فالمسلم يذكر ربه في كل حين ، وعلى أية حال ، في أكله وشربه ، وعند نومه وعند يقظته ، وفي إصباحه وإمسائه ، ولدى مدخله ومخرجه ، ويوم سفره وأوبته ، وعند لبسه ثوبه ، أو ركوبه ، مركبته ، حتى عند ممارسته الغريزية مع أهله لا ينسى في هذه المواقف وغيرها أن يذكر الله تعالى شأن أولي الألباب : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ (٤) .

وإذا كان أكثر اتباع الأديان لا يعبدون ربهم إلا مرة في كل أسبوع ، فإن المسلم على موعد مع الله كل يوم خمس مرات ، في صلواته المفروضة ، ثم هو مع الله دائماً بالنوافل والذكر والدعاء والاستغفار : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (٥) .

على أن المسلم يستطيع أن يجعل حياته كلها عبادة إذا التزم منهج الله ، وقصد بعمله - حتى الدنيوي - وجه الله تعالى .

❊ ❊

---

(١) النحل : ٣٦ (٢) الأنبياء : ٢٥ (٣) المائدة : ٢٧
(٤) آل عمران : ١٩١ (٥) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢

OBEIKAN.COM

● إنسان خلق وفضيلة :

والإنسان المسلم - إلى جوار كونه إنسان إيمان وعقيدة ، وإنسان نسك وعبادة - هو أيضاً إنسان خلق وفضيلة ، تتجسم فيه الطهارة بكل معانيها ، وتتمثل فيه فضائل العدل والرحمة والإيثار ، قد اتخذ من رسول الله (أسوة حسنة) وقد بعثه الله (ليتمم مكارم الأخلاق) ، ووصفه بأنه (على خلق عظيم) ، فهو يقتبس من نوره ويهتدى بهداه ، ويتخلق بخلقه ، ليكون أقرب إليه يوم القيامة . فهو إنسان قد انتصر على نوازعه وشهواته ، حين زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والمراقبة ، حتى انتقلت من (النفس الأمارة بالسوء) إلى (النفس اللوامة) ، وبهذا استحقت (الفلاح) حين انتصرت فيها التقوى على الفجور ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١) .

لقد علمنا الإسلام أن الخلق والفضيلة من لوازم العقيدة ، وتمام الإيمان ، كما أنهما ثمرة لازمة للعبادة الحقة ، وإذا لم تثمر العبادة فى الخلق والسلوك دل ذلك على أنها عبادة مدخولة .

والقرآن الكريم يحدثنا عن الإيمان مجسداً فى أخلاق وفضائل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ .... وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ .... ﴾ (٢) .

والرسول الكريم يحدثنا عن الإيمان كذلك فى صورة أخلاق وأعمال وفضائل ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليصل رحمه ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

---

(١) الشمس : ٧ - ١٠ (٢) المؤمنون : ١ - ٨

« الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى من الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وقد ألف الإمام البيهقى كتاباً كبيراً سماه « الجامع لشعب الإيمان » .

يشمل كل الفضائل وأعمال الخير التى دعا إليها الإسلام ، واعتبرها كلها من شعب الإيمان ، كما دل على ذلك الحديث .

والعبادات الشعائرية المفروضة من شأنها أن تثمر زكاة النفس ، بالفضائل ، وطهارتها من الرذائل ، كما أشار إلى ذلك القرآن ، إذ يقول فى شأن الصلاة : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١) ، وفى شأن الزكاة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (٢) ، وفى شأن الصيام : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وفى الحديث عند البخارى : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

« رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » .

وخلق المسلم لا يتجزأ ، فهو ليس كخلق اليهودى الذى يحرم الربا فى تعامله مع مثله ، ويستحله فى تعامله مع الآخرين ، وليس كخلق إنسان الغرب الاستعمارى الذى يتعامل داخل أوطانه بأخلاق وفضائل مثالية ، فإذا تعامل مع البلاد الأخرى سرق وظلم ، وطغى واستكبر .

المسلم يعدل مع من يحب ومن يكره ، مع القريب الأقرب ، ومع العدو الأبعد ، ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) العنكبوت : ٤٥
(٢) التوبة : ١٠٣
(٣) البقرة : ١٨٣
(٤) النساء : ١٣٥

OBEIKAN.COM

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ (١) .

* *

● **إنسان شريعة ومنهج :**

والمسلم - فضلاً عن التزامه بالخلق والفضيلة - هو ملتزم كذلك بمنهج ربانى ، بشريعة محكمة ، مفروضة عليه من ربه ، أحلت له الحلال ، وحرمت عليه الحرام ، وحددت له الواجبات ، وبينت له الحقوق ، وفصلت له كل ما يحتاج إليه ، فلم تدعه هملاً ، ولم تتركه نهباً للفلسفات والأنظمة البشرية المتضاربة ، تميل به عن يمين وشمال ، بل رسمت له (الصراط المستقيم) وألزمته بالسير فيه ، مراعية ما يعرض له من أعذار ، فشرعت له الرخص ويسرت عليه الأمر ، ومقدرة ما يطرأ عليه من ضرورات ، فأباحت له بعض ما حظرت عليه بقدر ما توجب الضرورة وحجمها وزمنها ، من غير بغى ولا عدوان ، كما قال تعالى فى شأن الأطعمة المحرمة : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

المسلم مقيد فى حياته كلها بما أحل الله له ، فهو ليس (سائباً) يفعل (ما يشتهى) ، بل هو منضبط بفعل (ما ينبغى) .

فإذا أخذنا الأكل مثلاً ، فهو لا يأكل الميتة ولا الدم ولا لحم الخنزير ، ولا يأكل من اللحم إلا ما ذبح ذبحاً شرعياً ، أما ما لم يذبح ، أو (ذبح على النصب) أو(أهل لغير الله به) فلا يحل للمسلم أكله .

وكذلك لا يحل له أن يأكل طعاماً غصب من صاحبه الشرعى ، أو سرق أو أخذ بالباطل ، كما لا يحل له أن يأكل طعام امرىء بغير طيب نفس منه .

والوعيد فى ذلك شديد ، فكل جسد نبت من سحت ، فالنار أولى به .

---

(١) المائدة : ٨ (٣) البقرة : ١٧٣

OBEIKAN.COM

وكذلك لا يحل للمسلم أن يتناول أى طعام أو أى مادة يضره تناولها : لأنه ليس ملك نفسه ، والإضرار بنفسه حرام ، لأنه قتل بطىء لها ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ (١) .

والرسول يقول : « لا ضرر ولا ضرار » أى لا تضروا أنفسكم ، ولا تضاروا غيركم .

ومن هنا كان تناول (التبغ) وملحقاته ، بعد أن ثبت ضرره علماً وطباً وواقعاً - حراماً بلا شك ، ومن باب أولى : المخدرات التى هى بمنزلة السموم ، فالتحريم فى الإسلام يتبع الخبث والضرر : ﴿ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ (٢) .

كما أن المسلم لا يشرب الخمر ، حفاظاً على عقله وجسمه وخلقه ، ويعتبرها أم الخبائث ورجساً من عمل الشطان ، وكبيرة منافية للإيمان ، كما فى الحديث الصحيح : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

وحتى المأكل الحلال ، والمشرب الحلال ، لا يتناوله المسلم فى آنية ذهب ولا فضة ، فإن الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب ، أو الفضة ، إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم ، كما صح بذلك الحديث .

وهو حين يأكل أو يشرب ما يحل له ، لا يتجاوز الحد المناسب ، فيدخل فى دائرة الإسراف المحرم ، كما قال تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣) .

والمسلم فى علاقاته الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية مقيد بأحكام الشريعة الإلهية ، فهو يتزوج أو يطلق ، ويبيع ويشترى ، ويستأجر ويؤجر ويكتسب وينفق ، ويتملك ويهب ، ويرث ويورث ، ويحكم ويحتكم ،

---

(١) النساء : ٢٩ (٢) الأعراف : ١٥٧ (٣) الأعراف : ٣١

ويسالم ويحارب ، وفقاً لأوامر الشريعة ونواهيها ، واقتضائها وتخييرها : « فما أحل الله فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو » .

❊ ❊

● **إنسان دعوة وجهاد :**

والإنسان المسلم فوق ذلك : إنسان دعوة وجهاد ، أعنى أنه لا يقف عند صلاح نفسه ، بل يبذل جهده لإصلاح غيره ، ودعوة الآخرين إلى ما هداه الله إليه .

ومن هنا وجدنا سورة العصر - على وجازتها - تشترط لنجاة الإنسان من خسر الدنيا والآخرة - إلى جوار الإيمان وعمل الصالحات - التواصى بالحق والتواصى بالصبر : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .

ومعنى التواصى هنا : أن يوصى غيره بالحق ويدعوه إليه ، وأن يتقبل من غيره الوصية بالحق كذلك ، فكل مسلم موصٍ ، وموصى بالحق فى الوقت ذاته ، وهذا هو معنى التواصى .

فالمسلم بطبيعته داعية ، لأنه يوقن أن رسالته للعالم كله ، وللزمن كله ، وللحياة كلها ، فهو يسعى لمد شعاعها ، وتعميم رحمتها على العالم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وكما أن محمداً ﷺ بعث رحمة للعالمين ، كما علمنا القرآن ، وكما قال عن نفسه : « إنما أنا رحمة مهداة » ، فأمته مبعوثة كذلك بما بعثه الله به ، وكل من اتبعه فهو داعية إلى الله ، مقتدياً به ، كما قال تعالى مخاطباً له : ﴿ قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (٣) ،

---

(١) العصر : ١ - ٣ (٢) الأنبياء : ١٠٧ (٣) يوسف : ١٠٨

فكل من اتبعه عليه الصلاة والسلام فهو داع إلى الله على بصيرة ، أو هكذا يجب أن يكون .

وهكذا قال الصحابى ربعى بن عامر لرستم قائد الفرس : إن الله (ابتعثنا) لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

والمسلم يبدأ دعوته فى محيطه الخاص أولاً ، أى فى أهله وأولاده وأسرته ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ ﴾ (١) ، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢) .

ثم يمتد بدعوته فى المجتمع من حوله ، داعياً إلى الخير ، محذراً من الشر آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، فلا يجوز له أن يقف موقف المتفرج ، أو غير المبالى ، من شيوع المنكر ، أو ضياع المعروف ، بل لا بد أن يتقدم ليغيّر المنكر إن استطاع بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان .

ولا يفهم من (التغيير بالقلب) هنا : أنه (موقف سلبى) بل هو (غليان من الداخل) فى مواجهة منكر غالب وراءه قوى ظالمة تسنده وتحميه . وهذا الغليان لا بد أن يتجسد يوماً فى عمل إيجابى له أهميته فى تغيير المجتمع .

المهم ألا يتخذ المنكر صفة الشرعية بطول السكوت عنه ، فهذا هو الذى يجلب لعنة الله على المجتمعات ، ويحل بها سخطه ونقمته : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) التحريم : ٦ (٢) طه : ١٣٢ (٣) المائدة : ٧٨ ، ٧٩

حتى لو كان الذين يقترفون المنكر ، أو يحمونه ، من أولى الأمر ، وأصحاب الشأن ، ينبغى للمسلم ألا يضعف فى مواجهتهم بالأمر والنهى ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، مستنداً إلى قوة الحق الذى معه ، وإلى اليقين بأن رزقه بيد الله لا يملك أحد أن ينقصه ، وإن أجله عند الله مسمى ، لا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم .

وهذا هو الجهاد الداخلى الذى اعتبره النبى العظيم فى القمة من أنواع الجهاد حين سئل عن أفضل الجهاد ، فقال : « كلمة حق عند سلطان جائر » .

وقال فى الحديث الذى رواه ابن مسعود : « ما من نبى بعثه الله قبلى إلا كان له حواريون » .

ولا يقف المسلم عند حد الجهاد الداخلى بالدعوة والأمر والنهى ، بل هو يجاهد بلسانه ، ونفسه وماله ، لتصل كلمة الله إلى الناس كافة ، كما جاء فى الحديث : « جاهدوا المشركين بأيديكم ، وألسنتكم وأموالكم » (١) .

واعتبر القرآن الكريم الجهاد بتبليغ الدعوة من الجهاد الكبير ، حين قال لرسوله : ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ - أى بالقرآن - جِهَاداً كَبِيراً ﴾ (٢) .

وهذه الآية مكية ، أى قبل أن يشرع القتال فى المدينة بسنوات .

وإذا كانت الأديان الأرضية ، والأديان السماوية المحرفة ، تسعى لنشر دعوتها فى العالم ، فأولى بدين الله الخالد والخاتم أن يجد من ينشره فى الآفاق حتى يتحقق وعد الله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٣) ، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤) .

* *

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم عن أنس ، صحيح الجامع الصغير : ٣٠٩٠

(٢) الفرقان : ٥٢ (٣) الصف : ٩ (٤) فصلت : ٥٣

● **إنسان عقل وعلم** :

وإذا كان إنسان الإسلام إنسان إيمان وعقيدة ، فهو - فى الوقت نفسه - إنسان عقل وعلم ، إذ لا تعارض فى الإسلام بين الإيمان والعقل ، ولا بين الدين والعلم .

الإيمان الإسلامى لا يقول للمسلم ما تقوله أديان أخرى : اعتقد وأنت أعمى ! بل يدعوه أن يكون على (بينة من ربه) وأن يؤسس عقيدته على (اليقين) لا على (الظن) وأن يعتمد على (البرهان) لا على (التقليد) .

والقرآن ينادى أصحاب الملل والنحل المختلفة بقوله : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ : هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

ويدمغ القرآن المشركين بقوله : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٣) .

وكما أنكر القرآن اتباع الظن فى الموضع الذى يتطلب اليقين ، أنكر كذلك اتباع الهوى والعواطف فى مقام يوجب الموضوعية الخالصة . فقال تعالى عن عباد الأصنام : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ (٤) .

وإلى جوار ذلك شن حملة شديدة العنف على التقليد الأعمى للآخرين ، الذى يجعل الإنسان يلغى عقله ، ويفكر بعقل غيره ، سواء كان هذا الغير يتمثل فى الآباء والأجداد المعظمين عنده ، أو فى السادة والكبراء ذوى النفوذ والسلطان الذى قد يبلغ درجة التأله فى الأرض ، أو فى جمهور الناس وغوغائهم الذين اختلت موازينهم .

وفى نقد التقليد للآباء جاءت آيات كثيرة ، منها فى القرآن المكى قوله

---

(١) النمل : ٦٤ (٢) الأنعام : ١٤٨
(٣) النجم : ٢٨ (٤) النجم : ٢٣

OBEIKAN.COM

تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ ؟! (١) .

وفى القرآن المدنى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا : حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ ؟! (٢) .

وفى نقد التقليد للكبراء والسادة ، تقرأ فى القرآن المكى ، وهو يصور بعض مشاهد الآخرة ومواقف المعذبين فى الجحيم بعضهم من بعض : الأتباع والمتبوعين ، الأذناب والرؤوس : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ : رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ، قَالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ : فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

وهذا التلاوم تكرر كثيراً فى السور المكية .

وفى القرآن المدنى نقرأ قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (٤) .

وفى نقد التقليد للعامة ، والاندفاع وراء الجمهور ، ولو كانوا على باطل ، جاء الحديث النبوى يحذر من هذه التبعية فيقول : « لا يكن أحدكم إمعه ،

---

(١) الزخرف : ٢٣ - ٢٤ (٢) المائدة : ١٠٤

(٣) الأعراف : ٣٨ ، ٣٩ (٤) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧

فيقول : أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا ألا تظلموا » رواه الترمذى وحسنه .

ومن ناحية أخرى يحث القرآن بأبلغ الأساليب على النظر والتفكير والتدبر ، سواء فى آيات الله الكونية المنظورة ، أم فى آياته التنزيلية المقروءة والمسموعة ، وبعبارة أخرى فى المصحف الصامت وهو الكون ! والمصحف الناطق وهو القرآن .

اقرأ إن شئت هذه الآيات : ﴿ قُلِ : انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (١) .

﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٢) .

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ (٣)

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤) .

﴿ قُلْ : إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (٥) .

ومعنى قيامهم لله أن يتجردوا من الأهواء ، ويبحثوا عن الحقيقة مخلصين .

وإنما قال : « مثنى وفرادى » ليكونوا بمنأى عن تأثير العقل الجمعى وإيحاءاته ، وإنما يفكر المرء مع رفيقه بهدوء ، أو مع نفسه حين يخلوا إليها كأنها رفيق يناجيه .

---

(١) يونس : ١٠١ (٢) الأعراف : ١٨٥ (٣) الذاريات : ٢٠ ، ٢١
(٤) فصلت : ٥٣ (٥) سبأ : ٤٦

ويقول تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ (١) .

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

والقرآن هو الكتاب المقدس الوحيد الذى أمر بالنظر والتفكر والعقل والتدبر ، كما أمر بالعبادة والتنسك ، فلا غرو أن يعتبر التفكر « فريضة إسلامية » كما قال العقاد - رحمه الله - ، فهذا ما تنادى به الأدلة ، ولا غرو أن يعتبر إمام كالغزالى (التفكر) أحد (المنجيات العشرة) الكبرى فى كتابه الشهير « إحياء علوم الدين » ، وفيه يروى عن السلف : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، بل قال بعضهم : تفكر ساعة خير من عبادة سنة !

والعقل عند المسلمين ليس نقيضاً للوحى ، بل هو الدليل على صدقه ، ولهذا يعتبر المحققون من علماء المسلمين : أن العقل أساس النقل ، إذ لولا العقل ما عرفنا وجود الله تعالى ، ولا أقمنا الأدلة عليه ، وأبطلنا شبهات الدهريين والملاحدة . . ولولا العقل كذلك ما قام البرهان على إمكان الوحى ووقوعه ، وصدق الأنبياء والرسل ، وآخرهم محمد ﷺ .

ولكن للعقل مجالاً لا ينبغى أن يتجاوزه ، وإلا تاه فى أودية الضلال ، وهو مجال هذه المخلوقات وما أكثرها ، وأوسع مداها ، وأما ذات الله تعالى وما يتعلق بجلال شأنه فليس للعقل سلطان عليه ، والأولى له التسليم للوحى فيه ، والتلقى عنه ، بعد أن يثبت هو صحته ، فالعقل هو الذى يقيم الدليل على صدق الوحى ، ثم يعزل بعد ذلك نفسه - كما قال الغزالى - ويأخذ عنه ما لا يدخل فى اختصاصه من شئون الألوهية وعوالم الغيب ، وأحوال الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ، وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٣) .

---

(١) النساء : ٨٢ (٢) سورة ص : ٢٩ (٣) الإسراء : ٨٥

وقد روى فى حديث : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » .

وبهذا التسليم يوفر الإنسان طاقته العقلية للبحث فيما هو أجدى عليه وأليق به .

وعلى المسلم أن يطلب كل علم نافع من أهله ، فطلب العلم فريضة ، منه ما هو فريضة عينية ، ومنه ما هو فريضة كفائية على مجموع الأمة ، سواء كان علماً دينياً أم دنيوياً ، مما يحتاج إليه الفرد أو المجتمع .

وإنما العلم بالتعلم ، وقد منح الله الإنسان أدوات العلم ، فلا يجوز له أن يعطلها : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

والقرآن يذم الكفار ، ويجعلهم حطب جهنم لتعطيلهم هذه الأدوات : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (٢) .

وينهى القرآن عن اتباع ما ليس للإنسان دليل عليه : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٣) .

ودليل الماديات هو الحس ، ولهذا أنكر القرآن على الذين زعموا الملائكة إناثاً بقوله : ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ ؟ (٤) .

ودليل العقليات هو الفكر : ﴿ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥) .

ودليل التاريخيات ونحوها هو النقل الصادق : ﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦) .

---

(١) النحل : ٧٨ (٢) الأعراف : ١٧٩ (٣) الإسراء : ٣٦

(٤) الزخرف : ١٩ (٥) البقرة : ١١١ ، والنمل : ٦٤ (٦) الأحقاف : ٤

ودليل الغيبيات والشرعيات هو الوحى : ﴿ قُلْ : آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ ؟ (١) ، ﴿ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وعلى هذه المبادىء أقام الإنسان المسلم حضارة شامخة جمعت بين العلم والإيمان ، وتركت آثارها فى حياة الإنسان علوماً ومعارف شتى ، سادت الدنيا قروناً من الزمان .

❊ ❊

● إنسان عمارة وإنتاج :

والإنسان المسلم ليس راهباً فى دير ، بل هو إنسان عمل وإنتاج للحياة ، يعطيها كما يأخذ منها ، ويعد عمارتها هدفاً من أهداف خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض ، كما قال تعالى على لسان صالح لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣) ، ومعنى (استعمركم) أى طلب إليكم عمارتها ، والأصل فى الطلب هو الوجوب ، لا تنافى العبادة ، بل هى - إذا استقامت على أمر الله ، وانضبطت بتعاليم شرعه - تصبح عبادة وقربة إلى الله تعالى ، كما سيأتى .

والله تعالى وهب الإنسان العقل ، وأهله بالعلم لمنصب الخلافة فى الأرض ، وفضله بذلك على الملائكة ، الذين لم يعلمهم ما علم آدم من الأسماء والخصائص ، وإنما آثره بذلك ليستخدم عقله وعلمه فى تعمير الأرض ، والانتفاع بما سخره الله فيها لمصلحته ، دون علو ولا إفساد .

وقد جعل الله الأرض للإنسان مهاداً وفراشاً ، وجعل له فيها مستقراً ومتاعاً إلى حين وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وأودع فيها أسباب المعايش التى تحقق بقاء هذا النوع إلى ما شاء الله ، فما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا ورزقه موفور فى هذه المعمورة .

---

(١) يونس : ٥٩ (٢) الأنعام : ١٤٣ (٣) هود : ٦١

OBEIKAN.COM

ولكن جرت سُنَّة الله ألا ينال رزقه إلا بكدح وسعى ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد .

يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ، فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا ، وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (١) .

فمن مشى فى مناكب الأرض الذلول أكل من رزق الله ، ومن قعد وتقاعس - بلا عذر - كان جديراً ألا يأكل ، إلا أخذاً من حق غيره من المشاة العاملين .

والعبادات الشعائرية فى الإسلام لا تعطل المسلم عن العمل لدنياه ، فهى لا تحتاج إلى تفرغ ولا انقطاع ، بل هى دقائق معدودات لكل صلاة من الصلوات اليومية ، الموزعة على أوقات اليوم والليلة .

ويوم الجمعة الذى فرضت فيه صلاة أسبوعية على المسلم ، ليس يوم انقطاع عن العمل الدنيوى كيوم السبت عند اليهود ، بل هو يوم كسائر الأيام ، إن شاء المسلم عمل فيه ، وإن شاء استراح إن كان لا بد له أن يستريح .

والقرآن يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ (٢) .

وبهذا نرى أن المسلم - كما يصوره القرآن - كان فى بيع وشراء وعمل قبل الصلاة حتى إذا سمع النداء ، توقف وسعى إلى ذكر الله ، فإذا انتهى من الصلاة عاد من جديد يواصل رحلة الكدح فى الحياة ، منتشراً فى الأرض مبتغياً من فضل الله .

و(الابتغاء من فضل الله) تعبير قرآنى متميز ، عن طلب الكسب من التجارة وغيرها ، وهو تعبير له إيحاؤه وتأثيره فى نفس المسلم .

---

(١) الملك : ١٥ (٢) الجمعة : ٩ ، ١٠

OBEIKAN.COM

والقرآن يصف رواد المساجد ، العابدين لله تعالى بقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ (١) .

ليس هؤلاء العباد المخلصون رهباناً ولا دراويش ، بل هم رجال أعمال وأموال ، ولكن لم تلههم دنياهم عن آخرتهم ، ولم يشغلهم حظ أنفسهم عن حق ربهم .

والمسلم مطالب أن يعمل لدنياه ، بما تيسر له من فروع الإنتاج ، زراعة أو صناعة أو تجارة ، أو رعياً أو صيداً ، أو استخراجاً لما فى الأرض ، أو غير ذلك ، مما تحتاج إليه الجماعة .

وفى الحديث الصحيح : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة » متفق عليه .

بل جاء فى حديث آخر : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها » رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد .

ومعنى هذا أن المسلم مطالب بالعمل للحياة إلى أن تلفظ آخر أنفاسها ، سواء انتفع بعمله أحد أم لم ينتفع ، إنما هو مطالب بالعمل لذات العمل ، فهو عبادة ، وجهاد مقدس .

وجاء فى حديث البخارى : « ما أكل أحد قط طعاماً أفضل من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى .

وفى حديث آخر : « التاجر الصدوق يحشر مع الشهداء » .

ولهذا اختلف الفقهاء والشراح : أى هذه الأعمال أفضل وأبر عند الله تعالى : الزراعة أم الصناعة أم التجارة ؟

---

(١) النور : ٣٦ - ٣٧

OBEIKAN.COM

والذى رجحوه أن الأفضل منها ما اشتدت حاجة الناس إليه ، وانشغل الناس عنه . . . . فإذا انصرف الناس عن الزراعة إلى الصناعة أو التجارة ، لكثرة مكاسبهم بها ، مع مسيس حاجتهم إلى الأقوات والثمار ، كانت الزراعة أفضل وأعظم مثوبة عند الله .

وإذا انصرف الناس عن الصناعات والحرف ، وأصبحوا فيها عالة على غيرهم من غير المسلمين ، كان العمل فى هذا الميدان أولى وأعظم أجراً .

وإذا احتاج الناس إلى التجارة ، لانقطاع الطرق ، أو لوجود مخاطر شديدة ، أو لقلة المكاسب بها ، أو لغلبة بعض الأفراد أو الفئات على الأسواق ، وتلاعبهم بالأسعار واحتكارهم للسلع والأقوات ، تكون التجارة هنا أفضل .

❊ ❊ ❊

OBEIKAN.COM

بناء الأسرة الصالحة

كما هدف الإسلام إلى تكوين الفرد أو الإنسان الصالح ، بوصفه اللبنة الأساسية فى البنيان الاجتماعى للأمة ، هدف كذلك إلى بناء الأسرة الصالحة ، التى هى الخلية الأولى والضرورية لقيام المجتمع الصالح .

ولا خلاف أن الزواج - الذى يربط بين الرجل والمرأة برباط مقدس - هو أساس تكوين الأسرة المنشودة ، فلا مكان لقيام أسرة صالحة ، أو أسرة حقيقية بغير الزواج ؛ كما شرعه الله تعالى .

● أفكار منحرفة عارضت الزواج :

عرفت الإنسانية فى القديم والحديث أفكاراً ومذاهب تعارض فكرة الزواج .

ففى فارس ظهرت قبل الإسلام فلسفة « مانى » الذى يزعم أن العالم ملىء بالشر ، ويجب فناؤه ، ومنع الزواج أقرب وسيلة إلى المسارعة بفناء العالم .

وفى ظل النصرانية ظهرت « الرهبانية » العنيفة ، التى تفرّ من الحياة ، وتلجأ إلى الأديرة ، وتحرم الزواج ؛ لأن المرأة فتنة مجسمة ، وشيطان فى صورة إنسان ، والقرب منها خطيئة تلوث الأرواح ، وتبعد عن ملكوت السماء .

وفى العصر الحديث وجد فى الغرب فلاسفة متشائمون ، صبوا جل سخطهم على المرأة ، وقالوا : إنها حية تسعى لين مسها ، قاتل سمها ، والزواج يعطيها فرصة لتتحكم فى الرجل ، وتثقله بالقيود والتكاليف ، فلماذا يضع الرجل - باختياره - الغُلّ فى عنقه ، وقد خلق حراً ؟

ومن المؤسف أن بعض شبابنا « العصريين » غرتهم هذه الأفكار ، فأعرضوا عن الزواج ، لما وراءه من مسئوليات وتكاليف وقيود ، وهم يريدون أن

OBEIKAN.COM

يعيشوا العمر كله أطفالاً يعبثون ، لا يحملون عبئاً ، ولا يتحملون تبعة ، فإن غلبتهم الشهوة ، ونادتهم الغريزة ، ففى مباءات الحرام الخبيث ، ما يغنيهم عن طيب الحلال .

❊ ❊

● الإسلام يرغب فى الزواج :

أما الإسلام فقد رفض تلك الأفكار المنحرفة ، والمذاهب المتشائمة ، ولم يقبل الرسول ﷺ الرهبانية فى الإسلام ، ونهى عن التبتل (الانقطاع عن الزواج للعبادة) ووجه نداءه إلى الشباب يحثهم على الزواج : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » (١) .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا علم من بعض أصحابه نزوعاً إلى التبتل ، وإغراقاً فى التزهد والتعبد ، نهاهم عن الغلو ، وأمرهم بالقصد ، وردهم إلى صراط الإسلام المستقيم ، وحُكْمه الوسط العدل .

روى الشيخان عن أنس قال : « جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا (أخبرتهم زوجاته) كأنهم تقالّوها (اعتبروها قليله) فقالوا : وأين نحن من النبى - صلى الله عليه وسلم - ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . .

قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء ، فلا أتزوج أبداً .

فجاء رسول الله - صلّى الله عليه وسلم - فقال : « أنتم الذين قلتم كذا

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الصوم وفى كتاب النكاح عن ابن مسعود .

OBEIKAN.COM

وكذا ؟ . . أما والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (١) .

❊ ❊

● مقاصد الإسلام من الزواج :

(أ) سُنَّة الله فى هذا الكون أن لا شىء فيه يستطيع أن يؤدى مهمته وحده ، بل خلقه الله محتاجاً إلى الاتصال بغيره من نوعه ليكمل به ويكمله ، فلا بد أن يتصل الموجب بالسالب فى عالم الكهرباء حتى يحدث التيار ، وآثاره من الضوء والحرارة والحركة وغيرها ، وكذلك لا بد أن يتصل الألكترون بالبريتون فى عالم الذرة .

ولا بد من اتصال حبوب التذكير بحبوب التأنيث فى عالم النبات حتى ينتج الزرع والشجر ، ويخرج الحب والثمر ، ولا بد من اتصال الذكر بالأنثى فى عالم الحيوان حتى يحدث الدر والنسل .

وإلى هذه السُّنَّة الكونية العامة أشار القرآن الكريم ، فقال تعالى :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِن أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

واستجابة لهذه السُّنَّة شرع الله سبحانه فى عالمنا الإنسانى لوناً رفيعاً كريماً من الاتصال بين الرجل والمرأة يليق بمكانة الإنسان وكرامته ، وهو ما نسميه « الزواج » .

لقد أودع الله صدر الرجل حنيناً إلى المرأة وأودع صدر المرأة حنيناً إلى الرجل ، فلا يزال كل منهما يحس بحاجة تناديه فوق المأكل والمشرب ، يشعر

---

(١) متفق عليه ، كما فى اللؤلؤ والمرجان (٨٨٥) .
(٢) الذاريات : ٤٩
(٣) يس : ٣٦

OBEIKAN.COM

بفراغ فى كيانه النفسى لا يملؤه إلا هذا اللقاء على شرع الله وسُـنَّته « الزواج » فيستقر بعد اضطراب ، ويطمئن بعد قلق ، ويجد كلاهما فى صاحبه السكون والمودة والرحمة ، تغمر جوانحه ، وتضىء جوانب حياته ، وهذه آية من آيات الله الكبرى فى هذا الوجود ، لفتنا إليه الكتاب العزيز : ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

(ب) وبالزواج يحدث النسل ، الذى يمتد به وجود الإنسان ، فيطول عمره ، ويتصل عمله ، بذريته الصالحة من بعده ، ولهذا امتن الله على عباده فقال : ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (٢) .

ولهذا دعا نبى الله زكريا ربه فقال : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِى فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٣) .

﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِياً * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً ﴾ (٤) .

ودعا أبو الأنبياء إبراهيم ربه فقال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ (٥) .

﴿ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٦) .

وذكر القرآن من أوصاف عباد الرحمن :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (٧) .

---

(١) الروم : ٢١ (٢) النحل : ٧٢ (٣) الأنبياء : ٨٩
(٤) مريم : ٥ ، ٦ (٥) الصافات : ١٠٠ ، ١٠١ (٦) إبراهيم : ٢٩
(٧) الفرقان : ٧٤

OBEIKAN.COM

وبالنسل تنمو الأمة ، ويكثر عددها ، فتعمر أرضها وتستغل كل طاقاتها ، وتقوى على مجابهة أعدائها ، ولا شك أن لكثرة العدد قيمة فى ميزان القوى العالمية . ومن هنا امتن الله على قوم بالكثرة ، فقال على لسان شعيب لقومه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا ، فإنى مكاثر بكم الأمم ، ولا تكونوا كرهبانية النصارى » (٢) .

وبالنسل يبقى النوع الإنسانى كله ، وتستمر حياته على الأرض إلى ما شاء الله من أجل معلوم .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٤) .

(جـ) والزواج - من جهة ثالثة - تمام الدين للمرء المسلم ، به يغض بصره ، ويعف نفسه ، ويجد متنفساً لشهوته فى الحلال ، فلا يفكر فى الحرام ، ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم - عن الزواج : « أنه أغض للبصر وأحصن للفرج » .

وقال : « من رزقه الله امرأة صالحة ، فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله فى الشطر الباقى » (٥) .

والشطر : النصف .

---

(١) الأعراف : ٨٦

(٢) رواه البيهقى فى السنن عن أبى أمامة ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٢٩٤١) .

(٣) النساء : ١

(٤) الحجرات : ١٢

(٥) قال المنذرى فى الترغيب : رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد . أقول : ووافقه الذهبى : ٢/ ١٦١

(د) والزواج ليس حفظاً للدين فحسب ، ولكنه أيضاً من مقومات السعادة الدنيوية ، التى لا يكرهها الإسلام ، بل يحبها لأتباعه ، ويوفرها لأبنائه ، ليفرغهم لما هو أعظم ، من السمو بالنفس ، والاتصال بالملأ الأعلى قال - صلى الله عليه وسلم - : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » (١) .

وقال : « أربع من السعادة : المرأة الصالح ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنئ » (٢) .

وعن سعد بن أبى وقاص قال : قال رسول الله ﷺ : « من سعادة ابن آدم : ثلاثة ، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة ؛ من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح ؛ ومن شقاوة ابن آدم : المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء » (٣) .

(هـ) والزواج هو الطريق الوحيد لتكوين الأسرة التى هى نواة المجتمع ، وأساس بنائه ، ولا يقوم مجتمع إنسانى كريم ، إلا إذا قامت قبله الأسرة ، ففى ظلال الأمومة والأبوة ، والبنوة والأخوة ، تغرس المشاعر الطيبة والعواطف الخيرة من المحبة والإيثار والعطف والرحمة والتعاون .

(و) وبالزواج تنمو الصلات الاجتماعية ، فيضم الإنسان عشيرة إلى عشيرته ، وأسرة إلى أسرته ، أولئك هم أصهاره وأخوال أولاده وخالاتهم . وبذلك تتسع دائرة الألفة والمودة ، والترابط الاجتماعى ، فقد جعل الله المصاهرة لحمة كلحمة النسب ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ (٤) .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو .

(٢) رواه الحاكم وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان عن سعد ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٨٨٧) .

(٣) قال الهيثمى : رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط ، ورجال أحمد رجال الصحيح : ٤/ ٢٧٢ .

(٤) الفرقان : ٥٤

OBEIKAN.COM

(ز) وبالزواج تتاح الفرصة الملائمة التى تكتمل بها شخصية الرجل بتحمله مسئوليته زوجاً وأباً ، وتكتمل شخصية المرأة بتحمل مسئوليتها زوجة وأماً .

إن كثيراً من الرجال يفرون من الزواج ، لأنهم - كما قلنا - يريدون أن يعيشوا عمرهم أطفالاً كباراً ، دون رباط يربطهم ، أو بيت يضمهم ، أو تبعة تلقى على كواهلهم . ومثل هؤلاء لا يصلحون للحياة ، ولا تصلح بهم الحياة ، أما الزواج فإنه رباط وميثاق غليظ ، ومسئولية مشتركة بين الرجل والمرأة من أول يوم ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (١) ، ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (٢) .

وقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالرجل راع فى أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها » (٣) ، « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » (٤) ، « إن الله سائل كل راع عما استرعاه : حفظ أم ضيع » (٥) ، « إن لزوجك عليك حقاً » (٦) .

(ح) وبالزواج يتفرغ الرجل لإتقان أعماله فى خارج البيت ، مطمئناً إلى أن فى بيته من يدبر أمره ، ويحفظ ماله ، ويرعى أولاده . وفى هذا ما يعينه

---

(١) البقرة : ٢٢٨ (٢) النساء : ٣٤

(٣) متفق عليه عن ابن عمر ، اللؤلؤ والمرجان (١١٩٩) .

(٤) رواه أحمد وأبو داود والحاكم ، والبيهقى عن ابن عمرو ، صحيح الجامع الصغير (٤٤٨١) .

(٥) رواه النسائى وابن حبان عن أنس ، وحسنه فى الحديث السابق (١٧٧٤) .

(٦) متفق عليه عن ابن عمرو .

على إحسان العمل وزيادة الإنتاج ، بخلاف ذلك القلق المضطرب المشغول ، الموزع بين عمله وبيته ، وبين هم شغله فى الخارج وهم مطعمه ومشربه وملبسه فى الداخل .

وقديماً قال الشاعر :

إذا لم تكن فى منزل المرء حرة تدبّره ، ضاعت مصالح داره !

❊ ❊

● وصايا للراغبين فى الزواج :

يعمل الإسلام على إقامة الزواج على ركائز متينة ، من التفاهم والتراضى بين الزوجين ، وأهل كل منهما ، حتى يتم على أساس مكين ، لا تزعزعه عواصف الحياة مهما اشتدت . ولهذا يوصى من أول الأمر بوصايا غاية فى الأهمية .

❊ حسن اختيار شريك الحياة :

أول هذه الوصايا : أن يحسن كل واحد منهما اختيار شريك حياته ، ولا يكون همهما المظهر البراق وحده ، فالمظاهر قد تخدع ، والإنسان لا يقوم بحسن مظهره ، بل بحسن جوهره . ولهذا حثت الأحاديث النبوية على اختيار (الزوجة الصالحة) ، وإيثارها على (الزوجة الغنية) أو (الزوجة الفاتنة الجمال) أو (الزوجة ذات النسب العريق) .

والمراد بالزوجة الصالحة : ذات الدين والخلق .

وفى الحديث : « الدنيا متاع وخير متاعها : المرأة الصالحة » (١) .

وقال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولنسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (٢) .

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو .

(٢) متفق عليه : عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٩٢٨) .

OBEIKAN.COM

وفى حديث آخر : « فعليك بذات الدين والخلق تربت يمينك » [١] .

وكذلك حث المرأة وأولياءها على اختيار (الزوج الصالح) لا مجرد الزوج ذى المال أو ذى النسب والجاه .

والزوج الصالح : هو ذو الدين والخلق .

وفى الحديث : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » [٢] .

*

* النظر إلى المخطوبة :

ومع هذا لا بد أن يكون كلاهما من حيث الشكل والصورة مقبولاً عند صاحبه ، وهذا يختلف من شخص لآخر ، ولأجل هذا شرع الإسلام النظر قبل الزواج .

وقد قال المغيرة بن شعبة للنبى ﷺ : خطبت امرأة ، فقال : أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : « اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » [٣] ، وذلك لأن العين رسول القلب ، وهذا النظر قبل الزواج إذا كان معه القبول يفتح قلب كل منهما لصاحبه ، ولا بأس أن يراها بغير علمها ، حتى لا يجرح مشاعرها لو رآها وهى تعلم ، ثم لم تعجبه . وقد قال جابر : كنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعانى إلى نكاحها .

---

(١) قال المنذريُّ فى الترغيب والترهيب : رواه أحمد بإسناد صحيح والبزار وأبو يعلى وابن حبان فى صحيحه ، المنتقى (١١٠٥) ، وقال الهيثمى : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجاله ثقات : ٤/ ٢٥٤ .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة ، والترمذى والبيهقى عن أبى حاتم المزنى ، وحسَّنه فى صحيح الجامع الصغير (٢٧٠) .

(٣) رواه أحمد والدارقطنى والحاكم والبيهقى عن أنس ، ورووه - ومعهم الطبرانى - عن المغيرة ، وصحَّحه فى المصدر السابق (٨٥٩) .

OBEIKAN.COM

ومن حق المرأة أن تنظر إلى الرجل ، كما ينظر الرجل إليها ، فإنه يعجبها من الرجل ما يعجب الرجل منها .

ولا يكفى أن ينظر إليها فقط ، بل لا بد أن يتحدث إليها وتتحدث إليه ، ليتعرف كل منهما على ملامح شخصية صاحبه ، ولو بصورة مبدئية ، والرؤية لا تكشف ذلك ، إنما يكشفها الحديث والسؤال والجواب .

ومما يؤسف له أن المسلمين فى عصرنا وقعوا بين طرفى الإفراط والتفريط ، فهناك من يرفض مجرد الرؤية من الخاطب لابنته ، بل بعضهم يرفض أن يراها ، حتى بعد العقد عليها ، ولا يراها إلا ليلة البناء بها ، مع أنها تذهب إلى المدرسة أو الجامعة أو السوق ، وتسافر إلى الخارج ، ويراها كل الناس ما عدا خاطبها .

وهناك - على نقيض هؤلاء - من يسمحون للخاطب بالخلوة بالمخطوبة ، ولم يعقد عليها بعد ، والخروج متأبطاً ذراعها إلى الخلوات والنزهات والسينمات .

وإنما يضيع الدين والأخلاق بين الغلاة والمتسيبين !

❊

❊ ضرورة رضا الفتاة :

ولا يجوز لأب أن يزوج ابنته ممن يريدها هو ، وإن كانت هى لا تريده ، بل لا بد أن توافق عليه صراحة أو ضمناً ، وذلك بالسكوت إذا غلبها الحياء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « الأيم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن فى نفسها ، وإذنها صُماتها » [(١)] ، وقد روى البخارى عن خنساء بنت خدام الأنصارية : أن أباها زوجها ، وهى ثيب ، فكرهت ذلك ، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحه [(٢)] .

---

(١) رواه مالك وأحمد عن ابن عباس ، صحيح الجامع الصغير (٢٨٠٩) .

(٢) البخارى فى كتاب النكاح ، باب : إذا زوج الرجل ابنته وهى كارهة فنكاحه مردود .

وروى أبو داود عن ابن عباس : أن جارية بكراً أتت النبى ﷺ ، فذكرت أن أباها زوجها ، وهى كارهة ، فخيرها النبى ﷺ (١) .

ولا ينبغى للآباء أن يستبدوا بزواج بناتهن ، ويضربوا بعواطفهن عرض الحائط . فعن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : إن عندنا يتيمة ، وقد خطبها رجل معدم ، ورجل موسر ، وهى تهوى المعدم ، ونحن نهوى الموسر : فقال صلى الله عليه وسلم : « لم يُرَ للمتحابين مثلُ النكاح » (٢) .

وينبغى أن يتم الزواج برضا الأطراف كلها من أسرة المرأة ، وأسرة الرجل ، لهذا اشترط الفقهاء إذن ولى المرأة بل حضوره العقد ، وجعل ذلك بعضهم أمراً مستحباً لا واجباً ، ولهم فى ذلك أدلة من القرآن والسُّنَّة ، تبحث فى كتب الفقه .

والأولى ألا تتزوج المرأة بغير إذن وليها ، حتى لا يلعب بها الزوج بعد ذلك ، ويضيع حقوقها ولا تجد من يدافع عنها .

بل الأولى أن تشاور المرأة فى زواج ابنتها ، كما ورد فى حديث : « آمروا النساء فى بناتهن » (٣) لأن الأم أعرف بابنتها من أبيها ، ولأنها إذا لم توافق على الزواج فقد تنكد عيش زوج ابنتها بعد ذلك .

يقول الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله فى موسوعة تحرير المرأة فى عصر الرسالة :

« إن حضور الولى عقد الزواج كما يثبت إقرار العائلة لهذا الزواج ، يساعد على تأكيد أن رابطة الزواج لا تقتصر على علاقة حميمة بين شخصين

---

(١) أبو داود فى النكاح ، باب : البكر يزوجها أبوها ولا يستأمرها .

(٢) روى المرفوع ابن ماجه والحاكم ، صحيح الجامع الصغير (٥٢٠٠) ، والقصة رواها ابن منده فى الأمالى ، كما فى الصحيحة للألبانى (٦٢٤) .

(٣) رواه أحمد ، وفى إسناده ضعف ، ولكن تؤيده أحاديث أخرى .

رجل وامرأة ، بل هى كذلك صلة وثيقة بين عائلتين أو عشيرتين ، وكما يحضر ولى أمر المرأة فيندب حضور والد الرجل فضلاً عن أقارب الزوجين حتى يكون هذا الزواج بداية التحام بين العائلتين » .

وفى هذا المعنى يقول الإمام محمد عبده :

« لا يخفى أن أحكام الشريعة المقدسة ترشدنا إلى أن المصاهرة نوع من أنواع القرابة ، تلتحم بها العائلات المتباعدة فى النسب ، وتتجدد بها صلات الألفة والاتحاد ، فقد حرم الله على الشخص أن يتزوج بأمه أو أنثى من أصولها وفروعها ، كما حرم عليه أن يتزوج بأخته أو أنثى من أصول نفسه وفروعه .

وكذلك حرم على زوجته أن تقترن بشىء من أصوله أو فروعه ، فكأنما أنزل الله كلا من الزوجين منزلة نفس الآخر ، حتى أنزل فروع كل منهما وأصوله بالنسبة إلى الآخر منزلة أصول نفسه وفروعه . فهذه حكمة بالغة أقامها الشرع لنا برهاناً واضحاً على أن اتصال إحدى العائلتين بالأخرى بطريق المصاهرة ، مساو لنفس القرابة النسبية فى الأحكام والحقوق والاحترام ، وهذا هو الموافق لما عليه طبيعة الاجتماع الإنسانى . . . فمن كانت له ابنة ، وهو يميل إليها ميل الوالد إلى ولده ، ثم قضت سُنَّة الله فى خلقه بأن يقترن بها شخص من الناس ، فمقتضى محبة الوالد لابنته أن يطلب لها جميع الخيرات ويود لو بلغت أقصى درجات السعادة ، وحيث إن سعادتها يبعد أن تكون بدون سعادة زوجها الذى هى مقترنة به ، فمن الواجب عليه أن يميل إلى زوجها ميله إلى نفسها ، ويكون عوناً له على سعادتها ، لتتصل بها سعادة ابنته ، وهكذا كل من ينتسب إليها بنوع من القرابة ، فعليهم أن يكونوا على طراز من المحبة لزوجها ، مثل ما هم عليه بالنسبة إليها » .

* *

● حقوق المعاشرة بين الزوجين :

الزواج عقد وثيق ، وشركة مقدسة ، حرص الإسلام على أن تدوم وتستقر وتتوطد ، ففرض لكل من الزوجين حقوقاً ، وألزمه واجبات ، بحيث إذا التزماها سعداً بحياة زوجية هانئة وارفة الظلال .

وخلاصة هذه الحقوق والواجبات تتركز فى كلمة واحدة هى المعاشرة بالمعروف قال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) ، والمعروف هنا : ما يقره العرف السليم ، ويعتاده أهل الاعتدال والاستقامة من الناس ، من الصحبة الجميلة ، وكف الأذى ، بل احتماله من صاحبه ، وبذل الحق دون مطل ، مع البشر وطلاقة الوجه ، ولا يتبعه أذى أو منّة . والجميل حقاً : أن الآية السابقة جعلت الحقوق والواجبات متبادلة بين الزوجين ، فكل حق يقابله واجب .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنى لأحب أن أتزين لامرأتى ، كما أحب أن تتزين لى ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهو فهم دقيق لمفهوم الآية الكريمة .

ولكن الآية الكريمة جعلت للرجال على النساء درجة ، فما هذه الدرجة ؟ بعض المفسرين ذهب إلى أنها درجة القوامة والمسؤولية عن الأسرة ، وهذه المسؤولية توجب على الرجل أعباء أكثر من المرأة . ولهذا نقل القرطبى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٣) ، قال : الدرجة إشارة إلى حض الرجل على حسن العشرة ، والتوسع للنساء فى المال والخلق ، أى أنه الأفضل فينبغى أن يتحامل على نفسه . قال ابن عطية : وهذا قول حسن بارع .

واختار الطبرى أن أولى الأقوال فى تفسير الآية : أن الدرجة التى ذكرها

---

(١) النساء : ١٩ (٢) البقرة : ٢٢٨ (٣) البقرة : ٢٢٨

OBEIKAN.COM

الله تعالى هنا ، هى : الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها ، وإغضاؤه لها عنه ، وأداء كل واجب لها عليه ، وذلك ليكون للرجل فضل درجة عليها .

وهناك حقوق مشتركة بين الزوجين ، مثل الاحترام المتبادل ، والتشاور فيما يهم الأسرة ، كما قال تعالى فى شأن الوالدات المرضعات : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (١) .

ومنها : حقوق المعاشرة الجنسية ، فهى حق لكل منهما على صاحبه بالمعروف فى حدود الطاقة ، كما قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (٢) ، وإنما عبر عن هذه العلاقة باللباس ، لما توحى به الكلمة من الزينة والستر واللصوق والدفء .

ومنها : حق التعاون فى السراء والضراء ، على البر والتقوى ، فإذا كان ذلك مطلوباً من المسلمين جميعاً ، فأولى من يطلب منهم ذلك الرجل وامرأته .

ومنها : حق حفظ أسرار الزوجية ، فلا يجوز لأحدهما أن يفشى سر صاحبه ، ففى ذلك خيانة للأمانة المشتركة .

ومنها : حق التجمل الذى أشار إليه ابن عباس بقوله : أتزين لامرأتى ، كما تتزين لى امرأتى .

* *

● **حقوق الزوجة :**

ومن الحقوق التى تلزم الزوج لزوجته :

١ - **المهر** : وهو خالص حق المرأة ، فلا يحل للزوج أن يمطلها به إذا طلبته ، أو يسترده منها - كله أو بعضه - بعد دفعه لها ، فإذا تنازلت له عن شىء منه راضية غير مكرهة فلا بأس بأخذه . قال تعالى : ﴿ وآتُوا

---

(١) البقرة : ٢٣٣ (٢) البقرة : ١٨٧

OBEIKAN.COM

النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾ (١) .

وإذا رضى الزوج بالزيادة على ما تراضيا عليه فلا حرج فى ذلك . قال تعالى : ﴿ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (أى مهورهن) فَرِيضَةً ، وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ (٢) .

٢ - **النفقة** : فالزوجة لا تلزمها نفقة نفسها وإن كانت غنية ، وإنما تلزم الزوج ، لأنه هو الراعى المسئول عنها ، وقد أصبحت تحت رعايته وحمايته ، مكلفة بتدبير بيته ، والقيام بمطالبه ، وتربية ولده .

وتشمل هذه النفقة :

(أ) الطعام والشراب الكافيان .

(ب) الكسوة للشتاء والصيف .

(جـ) المسكن الملائم .

(د) العلاج إن مرضت .

(هـ) خادم ، إن كانت ممن يخدم مثلها عرفاً .

(و) مؤنسة إن كانت فى مكان موحش تخشى فيه على نفسها من عدو أو لص .

والأصل فى إيجاب هذه الأشياء : أن تركها ينافى المعاشرة بالمعروف التى أمر الله بها .

وفى الحديث : « اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوانٍ عندكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ..... ولهن عليكم رزقهن

---

(١) النساء : ٤ (٢) النساء : ٢٤

OBEIKAN.COM

وكسوتهن بالمعروف » [1] ، والمعروف هو قدر الكفاية التى يعرفها العرف ، بحسب قدرة الزوج ، ومكانة الزوجة .

قال تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [2] .

وإذا كان الزوج موسراً ولكنه يقتر على زوجته وولده ، وقدرت على الأخذ من ماله ، فلها الأخذ منه بغير إذنه ، بقدر كفايتها وكفاية ولدها منه ، لما روى البخارى ومسلم : أن هنداً امرأة أبى سفيان قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطينى من النفقة ما يكفينى وولدى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » [3] .

وإنما رخص لها بأخذ كفايتها بدون إذنه ، لأن الحاجة قاضية بذلك ، إذ لا غنى عن النفقة ولا قوام إلا بها ، وهى تتجدد بتجدد الزمن ، فتشق المرافعة بها إلى الحاكم ، والمطالبة بها كل يوم . والمرأة إذا نشزت وتمردت على زوجها سقطت نفقتها ، لأنها لم تفِ بحقه عليها ، فلم تستحق نفقته .

وإذا عجز الزوج عن الإنفاق على زوجته ، وتعذرت عليها النفقة بالاستدانة وغيرها ، كان لها الحق فى أن تطلب فسخ الزواج ، إذ لا حياة بدون نفقة ، وقد قال تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [4] ، وقد تعذر الإمساك بالمعروف ، فتعين التسريح بالإحسان ، لحديث : « لا ضرر ولا ضرار » [5] ، وإذا أمكنها أن تصبر فهو أولى ؛ لأنه من مكارم الأخلاق .

٣ - **التلطف والمؤانسة** : وليست حاجة المرأة من زوجها مادية تقتصر على

---

(١) مسلم كتاب الحج رقم (١٢١٨) .
(٢) الطلاق : ٧
(٣) متفق عليه عن عائشة ، اللؤلؤ والمرجان (١١١٥) .
(٤) البقرة : ٢٢٩
(٥) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس ، وابن ماجه عن عبادة ، صحيح الجامع الصغير (٧٥١٧) .

OBEIKAN.COM

النفقة والكسوة ونحوها ، فحسب ، بل لها حاجة نفسية أن يتلطف بها ، ويطيب نفسها ويدخل السرور عليها ، فهذا من تمام المعاشرة بالمعروف .

ولا يظن أحد أن هذا مما ينافى وقار الرجل ويسقط من هيبته . فقد كان سيد البشر محمد ﷺ يسابق عائشة زوجه فتسبقه مرة ، ويسبقها أخرى ، ويقول لها : « هذه بتلك » (١) .

« وقالت عائشة : كنت ألعب بالبنات (العرائس أو اللُعب) عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ، وكان لى صواحب يلعبن معى ، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن (يستخفين هيبة له) فيسربهن إلىّ فيلعبن معى » (٢) ، « وقالت : كان رسول الله ﷺ يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد ، حتى أكون أنا الذى أسأمه ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن ، الحريصة على اللهو » (٣) .

« وقد استمع النبى الكريم إلى عائشة وهى تحدث عن النساء الإحدى عشر ، وما قالت كل واحدة عن زوجها ، وذلك فى الحديث المعروف بحديث : « أم زرع » (٤) .

٤ - صيانة كرامتها :

وعلى الزوج أن يعرف لزوجته حرمتها ويصون كرامتها ، فلا يؤذيها بسبّ أو قول خارج ، ولا يفضى سر ما بينهما أمام الناس ، ولا ينتقص أهلها ، ولا يتجسس عليها ويتتبع عثراتها ، ولهذا نهى النبى ﷺ المسافر أن يطرق أهله ليلاً

---

(١) ابن ماجه رقم (١٩٧٩) ، عشرة النساء (٥٧) .

(٢) متفق عليه عن عائشة ، اللؤلؤ والمرجان (١٥٨١) .

(٣) مسلم ، كتاب صلاة العيدين ، رقم (٨٩٢) ص ٦٠٩

(٤) متفق عليه عن عائشة ، اللؤلؤ والمرجان (١٥٩٠) .

OBEIKAN.COM

(عند عودته) يتخونهم أو يطلب عثراتهم [١] ، لما فى ذلك من سوء الظن ، وإفساد المودة .

ومن حق الزوج أن يغار على زوجته ، ولكن دون إفراط ، ولئلا يساء الظن بها ، وترمى بالشر من أجله ، والخير فى الوسط ، وكل أمر زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وفى الحديث :

« إن من الغيرة ما يحب الله ، ومن الغيرة ما يبغض الله ، فأما الغيرة التى يحب الله ، فالغيرة فى الريبة ، وأما الغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير الريبة » [٢] .

والريبة : أن يرى على سلوك المرأة قرائن ودلائل تقتضى الشك والارتياب ، فلا يجوز أن يسد أذناً من طين وأخرى من عجين ، حتى لا يكون (ديوثاً) .

٥ - الصبر والاحتمال :

والمرأة ليست ملاكاً - كما يتوهم بعض السابحين فى الخيال - وإنما هى إنسان يحسن ويسئ ، ويصيب ويخطئ ، وعلى الرجل أن يصبر ويحتمل حفاظاً على الحياة الزوجية أن تنهدم .

وفى الحديث : « استوصوا بالنساء خيراً » [٣] ، « أن المرأة كالضلع (أى لا تخلو من عوج) ، إن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن استمتعت بها ، استمتعت بها وفيها عوج » [٤] ، ويراد بالعوج فى المرأة : غلبة الجانب العاطفى عليها أكثر من الرجل ، فلا بد من مداراتها والصبر عليها ، استبقاء لدوام العشرة ، وإلا فتقويم الضلع لا يكون إلا بكسره ، وهو أمر غير مرغوب ولا محمود .

---

(١) مسلم عن جابر برقم (٧١٥) .
(٢) أبو داود ، عن جابر بن عتيك برقم (٢٦٥٩) .
(٣) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٩٣٤) .
(٤) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٩٣٣) .

OBEIKAN.COM

وفى الحديث الآخر : « لا يفرك - أى لا يكره - مؤمن مؤمنة ، إن سخط منها خلقاً رضى منها آخر » (١) ، وبذلك ينظر إليها نظرة عادلة ، يذكر محاسنها ، كما يذكر عيوبها ، وأى إنسان سلم من العيوب ؟!

إن الرجل المسلم حقاً هو الذى يغلّب الواقع إلى الخيال ، ويحكم العقل فى العاطفة ، حت أنه ليضغط على نفسه مع شعوره بالكراهية ، لتستمر الحياة الزوجية ، استجابة لقول الله تعالى :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (٢) .

❊ ❊

● حقوق الزوج :

وللزوج على زوجته حقوق يجب أن ترعاها ، لتتم المعاشرة بالمعروف كما أمر الله تعالى ، أهمها :

١ - الطاعة فى المعروف :

وذلك أن كل شركة لا بد لها من رئيس مسئول ، والرجل قد رشحته الفطرة ، ورشحه ما يدفعه من مهر ونفقة أن يكون هو سيد البيت والمسئول الأول عن الأسرة ، فلا عجب أن يكون له حق الطاعة ، قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (٣) ، وهذه القوامة والمسئولية هى الدرجة التى ميز بها الرجل عن المرأة : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٤) .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة ، صحيح الجامع (٧٧٤١) .

(٢) النساء : ١٩ (٣) النساء : ٣٤ (٤) البقرة : ٢٢٨

OBEIKAN.COM

ويحرم عليها أن تعصى زوجها أو تتركه بغير سبب شرعى ، وفى الحديث : « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع » متفق عليه [١] ، وأكد الإسلام حق الزوج فى ذلك ، فلم يجز لها أن تتطوع بصلاة أو صوم وهو حاضر إلا بإذنه . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه » متفق عليه [٢] .

٢ - أن تحفظه فى غيبته فى نفسها وماله :

قال تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ﴾ [٣] .

وفى الحديث المتفق عليه : « المرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها » [٤] .

ومن حفظه فى نفسه أن تصون أسراره ، ولا تأذن بالدخول فى بيته لمن يكره من الناس ، وقد ذكر الرسول من صفات الزوجة الصالحة : « إذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » [٥] .

ومن حفظه فى ماله ألا تبسط يدها بالإنفاق مسرفة مبذرة ، ولا بأس أن تتصدق منه بما جرت به العادة ، وهما شريكان فى مثوبة الله ، وفى الحديث : « إذا أنفقت المرأة من بيتها زوجها غير مفسدة ، كان لها أجرها ، وله مثله بما كسب » [٦] .

٣ - أن تعاونه بالمعروف :

وقد ذهب كثير من الأئمة إلى أن المرأة ليس عليها خدمة زوجها فى عجن

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٩١٢) .
(٢) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٦٠٤) .
(٣) النساء : ٣٤
(٤) متفق عليه عن ابن عمر ، اللؤلؤ والمرجان (١١٩٩) .
(٥) ابن ماجه عن أبى أمامة (١٨٥٧) .
(٦) متفق عليه عن عائشة ، اللؤلؤ والمرجان (٦٠٣) .

OBEIKAN.COM

وخبز وطبخ وغسل ونحوه من أمور البيت . وإن كان الأولى لها فعل ما جرت به العادة . ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية أوجب عليها أن تعاونه بالمعروف من مثلها لمثله . وهذا هو مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (١) ، وإن كان التعاون مأموراً به فى كل حال فهو بين الزوجين أولى وأوكد .

٤ - تأديبها عند النشوز أو ترك الفرائض :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (٣) .

وما دام الرجل هو سيد البيت المسئول أمام الله وأمام الناس ، فمن حقه أن يردعها عن ارتكاب المحرمات ، أو إهمال الفرائض ، أو التهاون فى حقوق الزوجية ، حتى لا تتعرض الأسرة للانهيار . ولكن ذلك يتم فى إطار المحافظة على إنسانية المرأة وكرامتها .

* * *

(١) البقرة : ٢٢٨ (٢) التحريم : ٦ (٣) طه : ١٣٢

OBEIKAN.COM

بناء المجتمع الصالح

ويهدف الإسلام إلى تكون المجتمع الصالح ، كما هدف إلى الفرد الصالح ، والأسرة الصالحة ، وهما - ولا شك - أساس متين لصلاح المجتمع المنشود .

والمجتمع الصالح هو الذى يرتبط أفراده وأسره بقِيَم الإسلام العليا ، ومبادئه المثلى ، ويجعلها رسالة حياته ، ومحور وجوده .

وأهم القِيَم الإسلامية فى هذا المقام هى :

(أ) التجمع على العقيدة : فالمجتمع الإسلامى ليس مجتمعاً قومياً أو إقليمياً ، وإنما هو مجتمع عقائدى ، مجتمع فكرة وعقيدة ، وعقيدته هى الإسلام ، فهو الأساس « الأيديولوچى » لهذا المجتمع .

قد يكون أبناء هذا المجتمع من أجناس مختلفة ، أو ألوان مختلفة ، أو أوطان مختلفة ، أو ألسنة مختلفة ، أو طبقات مختلفة ، ولكن هذا الاختلاف كله يذوب وينصهر أمام وحدة العقيدة ، أمام « لا إله إلا الله - محمد رسول الله » ، أمام الإيمان المشترك الذي يضم الجميع فى رحاب أخوته : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

فإذا أردنا أن نصف هذا المجتمع بصفة فذة تميزه عما سواه ، لم نجد إلا أن نقول : إنه « مجتمع مؤمن » ، أو هو « مجتمع المؤمنين » أولئك الذين وصفهم الله تعالى فى مطلع سورة البقرة : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن

---

(١) الحجرات : ١٠

قَبْلِكَ ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

والإيمان الإسلامى ليس مجرد شعار أو دعوى ، أو تعصب على الآخرين ، وإنما هو حقيقة تستقر فى النفس ، ينبثق عنها سلوك ، ويصدقها عمل إيجابى ، ومن ثم جسد القرآن الإيمان أبداً فى أعمال وأخلاق ، كما فى أوائل سورة الأنفال ، وسورة المؤمنين ، وأواخر سورة الحجرات ، وغيرها .

(ب) ومن هنا جاء الاهتمام بقيمة أخرى من القيَم التى يقوم عليها المجتمع الصالح الذى يهدف الإسلام إلى تحقيقه ، وهى : « احترام العمل الصالح » بل تقديسه ، سواء كانت صيغته دينية كالصلاة والصيام والحج والعمرة ، والذكر والتلاوة والدعاء ، أم دنيوية ، كالسعى فى طلب الرزق ، وعمارة الأرض بالزراعة والصناعة والاحتراف ، وكل ما فيه منفعة الناس ، والإحسان إليهم . فهذا أصل مقرر معروف ، اعتبره القرآن ركناً فى كل دين ، مقروناً بالله واليوم الآخر . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

وقرن القرآن العمل بالإيمان فى أكثر من سبعين آية ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (٣) .

ولا ريب أن إقامة شعائر الله ، وأداء فرائضه الكبرى - من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت هى أول ما ينطبق عليه معنى العمل الصالح ، فليس هناك عمل أصلح للمخلوق من معرفة خالقه ، وعبادة ربه ، وإخلاص الدين له ، شكراً لنعمته ، ووفاء بحق ربوبيته ، ولكننا رأينا

---

(١) البقرة : ٣ - ٥ (٢) البقرة : ٦٢ (٣) الكهف : ٣٠

OBEIKAN.COM

فى حديثنا عن « العبادة » فى « مقومات الإسلام » أنها تسع الحياة كلها ، وتشمل كيان الإنسان كله ، فكل عمل نافع عبادة .

(جـ) والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، أصل بين من أصول هذا الدين ، فليس يكفى - فى منطق الإسلام - أن يكون المرء صالحاً فى خاصة نفسه ، غافلاً عن فساد غيره ، بل الصالح عنده حقاً ، من أصلح نفسه ، وحاول إصلاح غيره ، ولو بالدعوة والأمر والنهى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) . وبهذه الخصيصة ترجحت الأمة المسلمة على سائر الأمم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (٢) .

ومن هنا سجل القرآن لعنة الله لبنى إسرائيل - على لسان داوود وعيسى ابن مريم - لسكوتهم عن المنكر - وعدم تناهيهم عنه : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

(د) والجهاد فى سبيل الله - حماية للحق ، وتثبيتاً للخير ، وتأميناً للدعوة ، ومنعاً للفتنة ، وصداً للمغيرين ، وتأديباً للناكثين ، وإنقاذاً للمستضعفين - أصل إسلامى لا ينكره مسلم ، ولا يجهل منزلته وفضله ، وما أعد الله لأهله ، فضلاً عن مشروعيته ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ

---

(١) آل عمران : ١٠٤ (٢) آل عمران : ١١٠ (٣) المائدة : ٧٨ ، ٧٩

شَيْئاً ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ (٢) ، ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * ..... وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً ﴾ (٤) ، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمْ ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (٥) .

(هـ) وتثبيت الفضائل الخلقية كلها فى شتى جوانب الحياة ، ونشرها وحمايتها ، من العدل ، والإحسان ، والبر ، والصلة ، والتعاون على البر والتقوى ، واحترام النظام ، والصدق والعفاف ، ورعاية الأمانة والوفاء بالعهد ، والإخلاص فى السر والعلانية ، وقول الحق فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ، وكف اليدين واللسان عن إيذاء الناس ، وطهارة القلب من الغل والحسد ، والرياء ، والنفاق ، وحب الدنيا ، وسائر أمراض النفوس - كلها من الركائز المعنوية التى لا يقوم مجتمع مسلم إلا عليها .

❊ ❊

● الإخاء والمحبة :

(و) والإخاء والمحبة من دعائم المجتمع المسلم ، وهذا مقتضى الإيمان الذى يربط بين أهله برباط العقيدة الوثيق : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٦)

---

(١) التوبة : ٣٨ ، ٣٩ (٢) النساء : ٧٥ (٣) البقرة : ١٩٠ - ١٩٣
(٤) النساء : ٧١ (٥) الأنفال : ٦٠ (٦) الحجرات : ١٠

وقد أثبت التاريخ والواقع أنه لا رباط أقوى من العقيدة ، وأن لا عقيدة أقوى من الإسلام .

وأدنى مراتب هذا الإخاء : سلامة الصدور من الحسد والبغضاء ، التى اعتبرها الحديث النبوى : « داء الأمم » وسماها « الحالقة » ، ليست حالقة الشعر ولكن حالقة الدين ، وقد مدح الله تعالى أجيال التابعين للصحابة بإحسان بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١) .

وكلما عمقت جذور الإيمان ، امتدت فروع الإخاء وظلاله وثماره فى النفس والحياة ، وتحررت الأنفس من الأنانية المقيتة ، وتطلعت إلى العطاء لا الأخذ ، وإلى التضحية لا الغنيمة ، وفى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٢) .

وقد يرتقى ذلك إلى درجة الإيثار الذى وصف الله به مجتمع الصحابة بقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٣) .

❊ ❊

● التعاطف والتراحم :

(ز) التعاطف والتراحم ، وهذا من ثمرات الإخاء الحق ، وهو ما صوَّره الحديث الشريف أبلغ تصوير حين قال : « ترى المسلمين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء ، بالحمى والسهر » (٤) .

وفى الحديث الآخر : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (٥) .

---

(١) الحشر : ١٠ (٢) متفق عليه عن أنس ، كما فى اللؤلؤ والمرجان (٢٨) .
(٣) الحشر : ٩ (٤) متفق عليه عن النعمان بن بشير ، اللؤلؤ والمرجان (١٦٧١) .
(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم عن ابن عمرو ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٥٢٢) .

OBEIKAN.COM

وأوجب ما يكون العطف والرحمة : للضعفاء من الناس من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل والخدم والمعوقين من البشر ، ولهذا اعتبر القرآن من مظاهر الكفر والتكذيب بالدين القسوة على هؤلاء وتركهم يهلكون جوعاً وعرياً وضياعاً : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (١) ، وذم المجتمع الجاهلى بقوله : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (٢) .

ويعرض علينا القرآن مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، وإذا الذى يأخذ كتابه بشماله ، لم يغن عنه ماله ، أو يمنعه سلطانه ، ينادى عليه على رؤوس الإشهاد : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (٣) ، فرق بين عدم الإيمان وعدم الحض ، ليدل على عظم جريمة القسوة على المساكين .

❊ ❊

● **التساند والتعاون** :

(ح) التساند والتعاون ، وهو المظهر العملى للإخاء والتراحم ، والتعاون الإسلامى مجاله البر والتقوى وليس الإثم والعدوان ، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (٤) ، ولهذا حرَّم الإسلام الربا والاحتكار لما فيهما من استغلال القوى للضعيف ، واعتصار الغنى للفقير .

وقد مثَّل النبى ﷺ ذلك بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبَّك أصابعه » (٥) .

---

(١) الماعون : ١ - ٣ (٢) الفجر : ١٧ ، ١٨

(٣) الحاقة : ٣٠ - ٣٤ (٤) المائدة : ٢

(٥) متفق عليه ، عن أبى موسى ، اللؤلؤ والمرجان (١٦٧٠) .

وهو يشمل التعاون بين أفراد الشعب وفئاته بعضهم وبعض ، أو بين الشعب والحاكم ، كما ذكر القرآن التعاون بين « ذى القرنين » ، وتلك الجماعة المهددة من « يأجوج ومأجوج » قال : ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ (١) .

❊ ❊

● التكافل والتضامن :

(ط) التكافل والتضامن : بحيث ينهض القوى بالضعيف ، ويعود الغنى على الفقير ، ولا يضيع عاجز ولا مسكين فى هذا المجتمع ، والحد الأدنى فى ذلك هو فريضة الزكاة - الركن الثالث فى الإسلام - والتى يقوم عليها حراس ثلاثة : حارس من داخل ضمير الفرد المسلم ، وهو الإيمان . . وحارس من داخل المجتمع ، وهو الرأى العام المسلم . . وحارس من قِبَل الدولة ، وهو القانون والسلطان : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٢) .

وفى المال حقوق أخرى سوى الزكاة ، وبخاصة حق الجار على جاره ، بحيث يتكافل المجتمع له فى السراء والضراء .

وفى الحديث : « ليس بمؤمن مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع » (٣) .

والتكافل الإسلامى يستوعب كل جوانب الحياة - مادية ، ومعنوية - فهو

---

(١) الكهف : ٩٥ (٢) التوبة : ١٠٣

(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى السنن بألفاظ قريبة ، عن ابن عباس وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٥٨٣) ، ورمز له بالصحة .

OBEIKAN.COM

تكافل معيشى وعلمى وأدبى وعسكرى إلى غير ذلك من المجالات التى فصلها الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله فى كتابه « اشتراكية الإسلام » .

* *

● التواصى والتناصح :

(ى) التواصى والتناصح ، وهذا من التكافل الأدبى ، الذى يجعل كل مسلم مسئولاً عمن حوله من أبناء المجتمع ، ينصح لهم وينصحون له ، ويوصيهم بالحق والصبر ، ويتقبل الوصية منهم كذلك . وليس فى المسلمين أحد أكبر من أن يُنصح ، ولا أحد أصغر من أن ينصح . وهذا من أساسيات الدين ، وموجبات الإيمان ، وشروط النجاة من الخسران ، وفى القرآن : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (١) ، ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) .

وفى الحديث : « الدين النصيحة : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » (٣) ، وفى الحديث الآخر : « المؤمن مرآة المؤمن » (٤) .

* *

● التطهر والترقى :

(ك) التطهر والترقى ، فالمجتمع المسلم مجتمع نظيف يربى أبناءه على الطهارة والعفة والإحصان ، ويُحرِّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويعتبر الخمر والميسر ، رجساً من عمل الشيطان ، ويأمر المؤمنين والمؤمنات أن يَغضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، وينهى عن التبرج والإغراء بالقول أو بالمشى

---

(١) سورة العصر كاملة . (٢) التوبة : ٧١ (٣) رواه مسلم عن تميم الدارى .
(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس (صحيح الجامع الصغير : ٦٦٥٥) .

أو بالحركة ، حتى لا يطمع الذين فى قلوبهم مرض ، وحتى لا يثير الغرائز الهاجعة ، فتنطلق تعيث وتعربد ، بلا قيود من خُلُق ولا دين .

والمجتمع المسلم ليس مجتمع ملائكة مطهَّرين ، ولكن مَن ابتُلِىَ منهم ، بارتكاب معصية ، استتر بها ، ولم يتبجح بفعلها ، أو بالإعلان عنها ، وبذلك ينحصر أثرها ، ولا يتطاير شررها ، ثم يُرجى منه بعد ذلك أن يتوب منها : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١) .

❊ ❊

● **العدالة** :

(ل) العدالة ، وتشمل عدالة التعامل بين الناس فى شئون الحياة ، فإن العدل فريضة ، والظلم حرام ، كما فى الحديث القدسى : « يا عبادى ؛ إنى حرَّمتُ الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرَّماً ، فلا تظالموا » (٢) .

وتشمل العدالة الاقتصادية أو الاجتماعية التى تقف فى وجه الأقوياء حتى لا يمتصوا دماء الضعفاء ، بل تعمل على الحد من طغيان الأغنياء ، بقدر ما ترفع من مستوى الفقراء ، وما تفرض لهم من حقوق المال ، الزكاة ، أولها وليست آخرها .

وتشمل العدالة القانونية والقضائية ، بحيث يصل لكل إنسان حقه ، وإن كان عند خليفة المسلمين ، وأن يستوفى عقوبته على جرمه ، وإن كان ابن أمير المؤمنين : « وَايْمُ الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها » (٣) .

❊ ❊

● **مجتمع متقدم** :

(م) ومن أهم ما يوصف به هذا المجتمع الذى ينشئه الإسلام : أنه مجتمع متقدم ، وليس مجتمعاً متخلفاً بحال .

---

(١) البقرة : ٢٢٢ (٢) رواه مسلم . (٣) متفق عليه .

OBEIKAN.COM

وهذا أمر يحتاج إلى تجلية وتوضيح ، فإن كلمة « تقدم » كلمة مطاطة ، قابلة لأكثر من تفسير ، والحضارة الغربية اليوم تزعم لنفسها أنها حضارة التقدم ، وأن مجتمعاتها مجتمعات متقدمة ، وأن مجتمعات المسلمين وغيرهم من أبناء ما يسمونه « العالَم الثالث » كلهم من المتخلفين ، وقد يتلطفون معهم ، فلا يسمون بلادهم البلاد « المتخلفة » ، وإنما يسمونها « النامية » .

« ولا بد لنا أن نجيب بصراحة هنا عن موقفنا من التقدم - أو بعبارة أدق - عن موقف الإسلام من التقدم .

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضى منا أن نحدد أولاً مفهوم التقدم ، فالحكم للشيء ، أو عليه ، فرع عن تصوره .

والتقدم فى معناه البسيط : أن يكون الإنسان قدام غيره ، أى فى جهة الإمام ، ويقابله : التخلف ، وهو أن يكون الإنسان فى الخلف .

والأمامية والخلفية من الأمور النسبية ، فقد تعتبر فى الأمام بالنسبة لشخص وراءك ، وتعتبر فى الخلف بالنسبة لشخص أمامك ، وقد تكون أمام مجموعة كلها من المتخلفين ، فأنت حينئذ أسبق المتخلفين ، كالسابق بين العرجان !

* *

● **ارتباط التقدم بأهداف الحياة :**

ولكن التقدم قد يُقاس بالنسبة لهدف يريد الإنسان أن يبلغه ، فكل حركة فى اتجاهه تُقرِّب إليه ، تُعَد تقدماً ، بخلاف أى حركة فى عكس الاتجاه الموصل إلى الهدف ، لأنها حركة إلى الوراء حتماً .

وكذلك التوقف والجمود فى موضع واحد لا يعدوه صاحبه ، لا إلى أمام ولا إلى وراء ، هذا فى حد ذاته تخلف ، لأن توقفك يعطى غيرك فرصة ليخطو خطوة أو خطوات إلى الأمام ، وأنت واقف فى مكانك ، فستتخلف

أنت بقدر ما يتحرك هو . وخصوصاً أن الأصل فى الإنسان أنه حى متحرك ، والحركة دليل الحياة .

وهنا يبرز السؤال الكبير ، ما الهدف أو الأهداف التى يجب على البَشر أن يبلغوها ويحققوها فى حياتهم ؟ حتى يكون القُرب منها أو البُعْد عنها مقياساً للتقدم أو التخلف .

❊ ❊

● الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية :

إن الإسلام يجعل لحياة البشر على الأرض أهدافاً أساسية ، وأبرزها كما جاء بها القرآن العظيم - ثلاثة ، ذكرها الإمام الراغب الأصفهانى فى كتابه القيم « الذريعة إلى مكارم الشريعة » ، وهى :

١ - العبادة لله ، وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) .

٢ - الخلافة لله فى الأرض ، وإليها يشير قوله : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

٣ - والعمارة للأرض ، وإليها الإشارة بقوله : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٤) .

❊ ❊

● تقدم متكامل :

إن التقدم الذى يطلبه الإسلام للحياة : تقدم متكامل ، روحى ومادى ،

---

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) البقرة : ٣٠

(٣) الأعراف : ١٢٩ (٤) هود : ٦١

OBEIKAN.COM

أخلاقى وعمرانى ، دنيوى وأخروى ، علمى وإيمانى ، ولا يجد أى تعارض بين هذه المتقابلات ، بل هو يجمع بينها فى توازن واتساق .

إنه تقدم فى الأهداف والغايات ، وتقدم فى الوسائل والأساليب معاً ، فالإسلام أحرص ما يكون على نظافة الوسيلة ، حرصه على شرف الغاية ، ولا يقبل بحال الوصول إلى الغايات النبيلة بوسائل خسيسة أو قذرة ، بل هو يرفض الوصول إلى الحق بطريق الباطل ، يرفض أكل الربا وكسب الحرام لبناء المساجد ، وتشييد المدارس ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

وفى ضوء هذا المفهوم المتكامل للتقدم قامت الحضارة الإسلامية الشامخة التى جمعت بين الروائع المادية التى تمثلت فى مبدعات العمارة والفنون وغيرها ، وبين المعانى الإيمانية والأخلاقية التى كانت هى الدوافع الحقيقية وراء هذا الإبداع ، وكانت هى السند الروحى والمعنوى لهذه الحضارة التى لا تخطىء العين فى عامة مظاهرها ومنجزاتها : إنها حضارة ربَّانية ، محورها الإيمان ، وركيزتها الأخلاق .

* * *

OBEIKAN.COM

بناء الأمة الصالحة

من أهداف الإسلام الأساسية : تكوين (أمة) متميزة ، تطبق رسالته ، وتؤسس حياتها على عقيدته وشريعته ومثله ، وتربى أجيالها على هداه ، وتحمل رسالته إلى العالَم كله ، فتحمل معها الرحمة والنور والخير للبشرية كلها ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) ، ولم يكن تكوين هذه الأمة بالأمر السهل فى ظروف نشأة الإسلام المعروفة ، فقد وُلِدَ الإسلام فى جزيرة العرب ، وهى قائمة على القَبَلية والعصبية لها . فالقبيلة هى أساس الولاء ، ومصدر الاعتزاز والانتماء ، فلا مكان لابن القبيلة إلا بها ، بل لا وجود له إلا بها ، فهى النَسب والحَسب ، وهى السُلْطة والقوة ، وهى الاقتصاد والسياسة ، يرضى برضاها ، ويغضب بغضبها ، أو بغضب شيخها ، ويتعصب لابن القبيلة محقاً كان أو مبطلاً ، شعار كل واحد فيها : « انصر أخاك - أى ابن القبيلة - ظالماً أو مظلوماً » بالمعنى الظاهرى للعبارة ، ولقد وصف أحدهم زعيم قبيلة كبيرة بقوله : إنه رجل إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه : فيم غضب ؟!

وكل قبيلة تحاول أن تستعلى على القبيلة الأخرى ، وتنقص من أطرافها ، ولهذا كثرت الغارات من بعضهم على بعض ، حتى قال قائلهم :

وأحـــياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا !

فلما جاء الإسلام نقلهم نقلة كبيرة فى عالَم الفكر ، وعالَم الشعور ، وعالَم الواقع ، نقلهم من سجن القَبَلية الضيقة ، إلى باحة الأمة الواسعة . وحذَّر أشد التحذير من الدعوة إلى العصبية بكل ألوانها ، وخصوصاً العصبية للقبيلة .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧

وفى الحديث : « ليس منا مَن دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية ، أو مات على عصبية » (١) .

« مَن قاتل تحت راية عُمِّية ، يغضب لعَصَبَة ، أو يدعو إلى عَصبة ، أو ينصر عَصبة ، فقُتِل ، فقتلته جاهلية » (٢) .

وسُئل صلى الله عليه وسلم عن « العصبية » فقال : « أن تعين قومك على الظلم » (٣) ، ففسَّرها بأثرها فى واقع المجتمع القَبَلى ، فصاحب العصبية مع جماعة وإن جاروا وظلموا ، وضد خصومهم وأن بروا وأقسطوا أو أُوذوا وظُلموا ، على خلاف ما جاء به الإسلام من القيام بالقسط : ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ ﴾ (٥) .

وفى لحظة من لحظات الضعف البَشرى ، أطلت النزعة القَبَلية عند بعض الصحابة ، فتنادوا بأسماء قبائلهم : يا بنى فلان ، ويا بنى علان . فغضب النبى ﷺ أشد الغضب ، وقال : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » ؟! (٦) وقال عن دعوة العصبية كلمته المعبرة : « دعوها فإنها منتنة » (٧) .

لقد أراد الإسلام أن يبنى « أُمة » على أساس العقيدة والفكرة ، وليس على أى أساس مادى أو أرضى مما يبنى عليه البَشر أُممهم ، من عنصر أو لون أو لغة أو أرض ، مما ليس للإنسان فيه إرادة واختيار . بل هو قدر مفروض عليه ،

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (١٥٢١) عن جبير بن مطعم ، والحديث فيه ضعف ، ولكن يشهد له حديث مسلم الآتى بعده .

(٢) رواه مسلم فى الإمارة عن أبى هريرة (١٨٤٨) . وعُمِّية : الأمر لا يستبين وجهه .

(٣) رواه أبو داود فى الأدب (٥١١٩) عن واثلة بن الأسقع ، وابن ماجه فى الفتن (٣٩٤٩) .

(٤) النساء : ١٣٥ (٥) المائدة : ٨

(٦) ذكره ابن كثير فى تفسيره عن ابن إسحاق : ١/ ٣٨٩ (٧) رواه البخارى .

فلم يختر الإنسان جنسه ولا لونه ولا لغته ولا أرضه التى وُلِدَ فيها . إنما ورث هذا كله دون أن يكون له رأى فيه .

أما العقيدة . . فالأصل فيها أنها من اختيار الإنسان ، وإيمان المقلِّد مشكوك فى قبوله ، بل مرفوض عند المحققين من علماء المسلمين .

أراد الإسلام للمسلمين أن يكونوا أُمة تنتسب إلى الحق لا إلى زيد أو عمرو من البَشر ، فهى لا تقوم على رابطة عِرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية . بل هى أُمة عقيدة ورسالة قبل كل شىء .

هى أُمة الإسلام ، أو أُمة المسلمين كما قال تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) ، وهى أُمة الإيمان أو أُمة المؤمنين . ولهذا تُنادَى دائماً بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ .

❊ ❊

● أوصاف الأُمة الأساسية فى القرآن :

أبرز ما يميِّز هذه الأُمة عن غيرها من الأُمم أوصاف أربعة ذكرها القرآن :

● الربانية :

الأول : الربَّانية - ربانية المصدر ، وربَّانية الوجهة . فهى أُمة أنشأها وحى الله تعالى ، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه ، حتى اكتمل لها دينها ، وتمت به نعمة الله عليها كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (٢) .

فالله تعالى هو صانع هذه الأمة . ولهذا نجد القرآن الكريم يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (٣) . فهذا التعبير « جَعَلْنَاكُمْ » يفيد أنَّ الله هو جاعل هذه الأمة ومتخذها وصانعها .

---

(١) الحج : ٧٨ (٢) المائدة : ٣ (٣) البقرة : ١٤٣

OBEIKAN.COM

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١) ، فتعبير « أُخْرِجَتْ » يدل على أن هناك مُخرِجاً أخرج هذه الأُمة ، فهى لم تظهر اعتباطاً ، ولم تكن نباتاً برياً ينبت وحده دون أن يزرعه زارع ، بل هو نبات مقصود متعهَد بالعناية والرعاية . والذى أخرج هذه الأمة وزرعها وهيأها لرسالتها هو الله جَلَّ شأنه .

فهى أمة مصدرها ربانى ، ووجهتها ربانية كذلك ، لأنها تعيش لله ، ولعبادة الله ، ولتحقيق منهج الله فى أرض الله . فهى من الله وإلى الله (٢) ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ (٣) .

● **الوسطية** :

والثانى : الوَسطية . . التى تؤهل الأمة للشهادة على الناس ، وتبوئها مكان الأستاذية للبَشرية . وفيها جاءت الآية الكريمة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (٤) .

وهى وسطية شاملة جامعة : وَسطية فى الاعتقاد والتصور ، ووسطية فى الشعائر والتعبد ، ووَسطية فى الأخلاق والسلوك ، ووَسطية فى النظم والتشريع ، ووَسطية فى الأفكار والمشاعر .

وَسطية بين الروحية والمادية . . بين المثالية والواقعية . . بين الفردية والجَماعية (٥) .

إنها الأمة التى تمثل « الصراط المستقيم » بين السُبل المتعرجة والملتوية ،

---

(١) آل عمران : ١١٠

(٢) انظر : خصيصة « الربانية » فى كتابنا « الخصائص العامة فى الإسلام » ، ط . مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة . (٣) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣ (٤) البقرة : ١٤٣

(٥) انظر : خصيصة « الوسطية » من كتابنا المذكور .

OBEIKAN.COM

صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ، لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين .

● **الدعوة :**

والوصف الثالث : الدعوة . فهى أُمة دعوة ورسالة ، ليست أُمة منكفئة على نفسها ، تحتكر الحق والخير والهداية لذاتها ، ولا تعمل على نشرها فى الناس . بل الدعوة فريضة عليها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها على كل الأمم . كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (١) .

فهى لم ترجح سائر الأُمم فى ميزان الله لسبب مادى أو عنصرى . كيف وهى تتكون من عناصر شتَّى ، من كل مَن يدخل فى دين الله من أجناس البَشر عرباً أو عجماً ؟

إنما رجحت فى ميزان الحق ؛ لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وقبل ذلك بآيات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ومعناها على أحد التفسيرين : اجعلوا من أنفسكم أُمة الدعوة والأمر والنهى ، فبهذا تستحقون أن يُقصر الفلاح عليكم . و« من » هنا تجريدية لا تبعيضية .

وعلى التفسير الآخر : هيئوا منكم طائفة متماسكة قادرة على الدعوة والأمر والنهى . ولتسقط فرض الكفاية عنكم ، وتكونوا أنتم عوناً لها .

إن رسالة الإسلام رسالة عالَمية ، رسالة لكل الأجناس ، ولكل الألوان ،

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) آل عمران : ١٠٤

OBEIKAN.COM

ولكل الأقاليم ، ولكل الشعوب ، ولكل اللغات ، ولكل الطبقات . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٣) .

وعلى الأُمة المسلمة أن تدعو الناس جميعاً إلى الإسلام بألسنتهم حتى نبيِّن لهم ، ونقيم الحُجَّة عليهم ، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، حتى لا تُلعن كما لُعِنَ الذين من قبلها حين فرَّطوا فى هذا الواجب : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

● **الوحدة :**

والوصف الرابع : الوحدة . فالأُمة التى يريدها الإسلام أُمة واحدة ، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات ، فقد صهرها الإسلام جميعاً فى بوتقته ، وأذاب الفوارق بينها ، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَّاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٥) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٦) .

وكيف لا تكون هذه الأُمة واحدة ، وقد وحَّد الله عقيدتها وشريعتها ، وحَّد غايتها ، ووحَّد منهاجها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٧) .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ (٢) الفرقان : ١ (٣) الأعراف : ١٥٨
(٤) المائدة : ٧٨ - ٧٩ (٥) الأنبياء : ٩٢ (٦) المؤمنون : ٥٢
(٧) الأنعام : ١٥٣

OBEIKAN.COM

أمة ربها واحد هو الله ، ونبيها واحد هو محمد ﷺ ، وكتابها واحد هو القرآن ، وقِبْلتها واحدة هى الكعبة البيت الحرام ، وشريعتها واحدة هى شريعة الإسلام ، ووطنها واحد هو « دار الإسلام » على اتساعها ، وقيادتها واحدة تتمثل فى « خليفة المسلمين » وأمير المؤمنين ، الذى يُجسِّم الوحدة السياسية للأُمة .

ولهذا رفض الإسلام أن يكون للمسلمين خليفتان فى وقت واحد ، حرصاً على وحدة الأُمة ، ومنعاً لتفرق كلمتها ، وشتات أمرها .

ولهذا لا يجوز أن نقول فى تعبيرنا : الأُمم الإسلامية ، بل الأُمة الإسلامية فهى أمة واحدة كما أمر الله ، وليست أمماً متفرقة ، كما أراد الاستعمار .

يقول الله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

ولقد نبَّه القرآن على دسائس بعض أهل الكتاب الذين يسعون جهدهم لتمزيق شمل المسلمين ، وإثارة النعرات العصبية بينهم ، قال تعالى محذراً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وسبب نزول الآية الكريمة وما بعدها يدل على أن المقصود : يردوكم بعد وحدتكم متفرقين ، وبعد أخوَّتكم متعادين .

إن وحدة الأُمة توجب عليها أن تجعل أخوتها الإسلامية فوق كل العصبيات ، فقد جعلها الله تعالى معبِّرة عن الإيمان ومجسدة له : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٤) .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) آل عمران : ١٠٥
(٣) آل عمران : ١٠٠ (٤) الحجرات : ١٠

OBEIKAN.COM

وقال رسوله الكريم ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (١) أى لا يخذله عند الشدة أو عند الاعتداء عليه ، بل ينصره ويسانده ، وهذا هو مقتضى الأُخوة . وهو ما يؤكده الحديث الآخر : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على مَن سواهم » (٢) .

ويُحذِّر الإسلام أبلغ التحذير من تعادى أبناء الأُمة الواحدة إلى حد أن يحارب بعضها بعضاً ، كما كانت تفعل قبائل الجاهلية . يقول ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (٣) ، « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » (٤) .

* *

● الإيمان بالأُمة لا ينفى خصوصيات الأقوام :

ومن المفيد هنا أن ننبِّه على قضية ذات شأن ، وهى : أن الإيمان بـ « الأُمة » المؤسسة على عقيدة الإسلام ، وأُخوّة الإيمان ، والتى تضم جميع المسلمين فى رحابها حيث كانوا - لا ينفى أن هناك خصوصيات معيَّنة لكل قوم ، يعتزون بها ، ويحافظون عليها ، ولا يُفرِّطون فيها ، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عِرقية تقاوم أخوة الإسلام ، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام .

ولقد ترك الرسول ﷺ وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها ، تحت القيادة الإسلامية العامة ، ليكون ذلك مصدراً إضافياً لحماسهم وإقدامهم ، حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم .

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر كما فى صحيح الجامع الصغير .

(٢) رواه أبو داود فى الجهاد (٢٧٥١) ، وابن ماجه (٢٨٥٢) عن عبد الله بن عمرو .

(٣) متفق عليه عن جرير بن عبد الله كما فى اللؤلؤ والمرجان (٤٤) ، وعن ابن عمر (٤٥) .

(٤) متفق عليه عن ابن مسعود كما فى اللؤلؤ والمرجان (٤٣) .

إنَّ حب الرجل لقومه وعشيرته ورغبته فى جلب الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، نزعة فطرية لا غبار عليها ، ولا خطر فيها . كما لا خطر فى حبه لأسرته ، واهتمامه بها ، ولا غرو أن أمر الرسول بتعلم الأنساب لما وراءها من تواصل فى الأرحام وإن تباعدت : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » (١) .

وفى الحديث : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » (٢) .

إنَّ الخطر إنما يتمثل فيما إذا وقف قومه موقفاً معادياً للإسلام ، وحادوا الله ورسوله ، هنا تحرم الموادة والموالاة ، ولو كانت لأقرب الناس للإنسان ، كأمه وأبيه وزوجه وأخيه .

يقول تعالى : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٤) .

لا بأس أن يحب الرجل أسرته ، ويحب قومه وعشيرته ، ولكن إذا

---

(١) رواه الترمذى فى البِّر والصلة عن أبى هريرة وقال : غريب من هذا الوجه (١٩٨٠) ، وأحمد : ٢/ ٣٧٤ ، والحاكم ، وصححّه ووافقه الذهبى : ٤/ ١٦١

(٢) رواه أبو داود من حديث سراقة بن مالك فى الأدب (٥١٢٠) ، وفيه أيوب بن سويد ، ضعيف .

(٣) المجادلة : ٢٢ (٤) التوبة : ٢٣ - ٢٤

تعارض ذلك مع حب الله ورسوله . فإن حب الله ورسوله أغلى من كل شيء . هنا يتغنى المسلم بقول القائل :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم !

هنا يقول المسلم ما قاله سلمان رضى الله عنه حين سُئل : ابن مَن أنت ؟ فقال : أنا ابن الإسلام !

❊ ❊

● القومية عند حسن البنا :

ولقد كان هذا المعنى واضحاً عند الإمام البنا ، فلم يرفض فكرة « القومية » رفضاً كلياً ، ولم يقبلها قبولاً مطلقاً ، بل فصَّل فيها كما فصَّل فى « الوطنية » قال رضى الله عنه :

« إن كان الذين يعتزون بمبدأ « القومية » يقصدون به أن الأخلاف يجب أن ينهجوا نهج الأسلاف فى مراقى المجد والعظمة ومدارك النبوغ والهمة وأن تكون لهم بهم فى ذلك قدوة حسنة ، وأن عظمة الأب مما يعتز به الابن ويجد لها الحماس والأريحية بدافع الصلة والوراثة ، فهو مقصد حسن جميل نشجعه ونأخذ به ، وهل عُدَّتنا فى إيقاظ همة الحاضرين إلا أن نحدوهم بأمجاد الماضين ؟ ولعل الإشارة إلى هذا فى قول رسول الله ﷺ : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » (١) فها أنت ذا ترى أن الإسلام لا يمنع من القومية بهذا المعنى الفاضل النبيل .

وإذا قُصِدَ بالقومية أن عشيرة الرجل وأُمته أولى الناس بخيره وبره وأحقهم بإحسانه وجهاده فهو حق كذلك ، ومن ذا الذى لا يرى أولى الناس بجهوده قومه الذين نشأ فيهم ونما بينهم ؟

لَعمرى لرهط المرء خير بقية عليه وإن عالوا به كل مركب

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة كما فى صحيح الجامع الصغير .

OBEIKAN.COM

وإذا قُصدَ بالقومية أننا جميعاً مبتلون مطالَبون بالعمل والجهاد ، فعلى كل جماعة أن تحقق الغاية من جهتها حتى تلتقى إن شاء الله فى ساحة النصر فنِعْمَ التقسيم هذا ، ومَن لنا بمن يحدو الأمم الشرقية كتائب كل فى ميدانها حتى نلتقى جميعاً فى بحبوحة الحرية والخلاص ؟

كل هذا وأشباهه فى معنى القومية جميل معجب لا يأباه الإسلام ، وهو مقياسنا ، بل ينفسح صدرنا له ونحض عليه .

أما أن يُراد بالقومية إحياء عادات جاهلية درست ، وإقامة ذكريات بائدة خلت وتعفية حضارة نافعة استقرت ، والتحلل من عُقدة الإسلام ورباطه بدعوى القومية والاعتزاز بالجنس ، كما فعلت بعض الدول فى المغالاة بتحطيم مظاهر الإسلام والعروبة ، حتى الأسماء وحروف الكتابة وألفاظ اللغة ، وإحياء ما اندرس من عادات جاهلية ، فذلك فى القومية معنى ذميم وخيم العاقبة سئ المغبة ، يؤدى بالشرق إلى خسارة فادحة يضيع معها تراثه وتنحط بها منزلته ويفقد أخص مميزاته وأقدس مظاهر شرفه ونبله ، ولا يضر ذلك دين الله شيئاً : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ ﴾ (١) .

وأما أن يُراد بالقومية الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدى إلى انتقاص الأجناس الأخرى والعدوان عليها والتضحية بها فى سبيل عزة أمة وبقائها ، كما تنادى بذلك ألمانيا وإيطاليا مثلاً ، بل كما تدَّعى كل أمة تنادى بأنها فوق الجميع . فهذا معنى ذميم كذلك ليس من الإنسانية فى شىء ، ومعناه أن يتناحر الجنس البَشرى فى سبيل وهم من الأوهام لا حقيقة له ولا خير فيه .

الإخوان المسلمون لا يؤمنون بالقومية بهذه المعانى ولا بأشباهها ولا يقولون فرعونية وعربية وفينيقية وسورية ولا شيئاً من هذه الألقاب والأسماء التى يتنابز بها الناس ، ولكنهم يؤمنون بما قال رسول الله ﷺ الإنسان الكامل بل أكمل

---

(١) محمد : ٣٨

OBEIKAN.COM

معلم علَّم الإنسان الخير : « إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء ، الناس لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » (١) ما أروع هذا وأجمله وأعدله ، الناس لآدم فهم فى ذلك أكفاء ، والناس يتفاضلون بالأعمال فواجبهم التنافس فى الخير ؛ دعامتان قويمتان لو بنيت عليهما الإنسانية لارتفعت بالبَشر إلى علياء السموات ؛ الناس لآدم فهم إخوان فعليهم أن يتعاونوا وأن يسالِم بعضهم بعضاً ، ويرحم بعضهم بعضاً ، ويدل بعضهم بعضاً على الخير ، والتفاضل بالأعمال . فعليهم أن يجتهدوا كل من ناحيته حتى ترقى الإنسانية ، فهل رأيت سمواً بالإنسانية أعلى من هذا السمو أو تربية أفضل من هذه التربية ؟

❊ ❊

● خواص العروبة :

ثم يقول الأستاذ البنا رحمه الله : « ولسنا مع هذا ننكر خواصَّ الأمم ومميزاتها الخُلُقية ، فنحن نعلم أن لكل شعب مميزاته وقسطه من الفضيلة والخُلُق ، ونعلم أن الشعوب فى هذا تتفاوت وتتفاضل ، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر ، ولكن ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان ، بل عليها أن تتخذ ذلك وسيلة إلى تحقيق المهمة السابقة التى كُلِّفها كل شعب ، تلك هى النهوض بالإنسانية ، ولعلك لستَ واجداً فى التاريخ مَن أدرك هذا المعنى من شعوب الأرض كما أدركته تلك الكتيبة العربية من صحابة رسول الله ﷺ » ا هـ .

وبهذا لم ير الإمام البنا أن يقيم تعارضاً لا ضرورة له بين العروبة والإسلام .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (٥١١٦) ، والترمذى فى المناقب وحسَّنه (٣٩٥٠) ، وأحمد والبيهقى عن أبى هريرة . انظر : كتابنا « المنتقى من الترغيب والترهيب » ط . حديث (١٧٩٢) .

OBEIKAN.COM

بناء الدولة الصالحة

وكما حرص الإسلام على إنشاء الأمة الصالحة المصلحة ، ذات الرسالة الربانية الإنسانية الأخلاقية العالمية ، هدف كذلك إلى أن تحكم هذه الأمة دولة صالحة ، تحقق أهدافها ، وتنمى خصائصها ، وتحافظ على رسالتها ، وتعمل على غرسها فى الداخل ، ونشرها فى الخارج .

ولقد استطاع الاستعمار الذى حكم أكثر بلاد المسلمين - أن يغرس فى الكثيرين منهم فكرة دخيلة ، مؤداها أن الإسلام دين لا دولة . « دين » بالمفهوم الغربى لكلمة « الدين » أما شئون الدولة فلا صلة له بها . وإنما ينظمها العقل الإنسانى وفقاً لتجاربه وظروفه المتطورة !

لقد أرادوا أن يُطبِّقوا على الإسلام فى الشرق ، ما طُبِّقَ على المسيحية فى الغرب . فكما أن النهضة هناك لم تتم إلا بعد التحرر من سلطان الدين ، فكذلك يجب أن تقوم النهضة فى شرقنا العربى الإسلامى على أنقاض الدين !

مع أن الدين هناك معناه الكنيسة وسلطة البابا ، واستبداد رجال الكهنوت بالضمائر والأرواح . فأين هذا من الدين هنا ، وليس فيه بابا ولا كهنوت ولا استبداد بالضمائر والأرواح ؟! (١) .

على كل حال ، لقد نجح الاستعمار فى خلق فئات تؤمن أن الدين لا مكان له فى توجيه الدولة وتنظيمها ، وأن الدين شىء والسياسة شىء آخر ، وأن هذا يجرى على الإسلام ، كما جرى على المسيحية . وكان من

---

(١) انظر : فصل « دين لا دولة » من كتاب « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للدكتور محمد البهى ، وانظر : فصل « دولة إسلامية لا دولة دينية » من كتابنا « بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين » .

OBEIKAN.COM

الشعارات المضللة التى شاعت أن « الدين لله والوطن للجميع » ! وهى كلمة حق يُراد بها باطل ، ويمكن أن تقلب على كل الوجوه . فنستطيع أن نقول : إن الدين لله والوطن لله ، أو : الدين للجميع والوطن للجميع ، أو : الدين للجميع والوطن لله !

وإنما مرادهم بكلمة « الدين لله » أن الدين مجرد علاقة بين ضمير الإنسان وربه ، ولا مكان له فى نظام الحياة والمجتمع .

وكان أبرز مثل عملى لذلك هو « الدولة العلمانية » التى أقامها كمال أتاتورك فى تركيا ، وفرضها بالحديد والنار والدم على مجموع الشعب التركى المسلم ، بعد تحطيم الخلافة العثمانية آخر حصن سياسى بقى للإسلام بعد صراع القرون ، مع الصليبية واليهودية العالَمية .

وقد أخذت الحكومات فى البلاد الإسلامية الأخرى تقلد تركيا الجديدة ، على درجات متفاوتة ، فأقصى الإسلام عن الحكم والتشريع فى الأمور الجنائية والمدنية ونحوها ، وبقى محصوراً فيما سمى « الأحوال الشخصية » كما أقصى عن التوجيه والتأثير فى الحياة الثقافية والتربوية والاجتماعية إلا فى حدود ضئيلة . وفسح المجال كل المجال للتوجيه الغربى والثقافة الغربية والتقاليد الغربية .

وكان من أبرز المظاهر لنجاح الغزو الثقافى الغربى أن « الفكر العلمانى » الدخيل الذى ينادى بفصل الدين عن الدولة ، لم يقف عند الرجال « المدنيين » وحدهم ، بل تعدَّاهم إلى بعض الذين درسوا دراسة دينية فى معهد إسلامى عريق كالأزهر ، كما تجلى ذلك فى كتاب الشيخ على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم » .

ومن الإنصاف أن نقول : إن هذا الكتاب قد أحدث ضجة هائلة حين صدوره ، فى المجتمع عامة ، وفى الأزهر خاصة ، وقد شُكِّلت هيئة من كبار علماء الأزهر لمحاكمة مؤلفه ، فقضت بتجريده من شهادة العالِمية ، وإخراجه

من زُمرة العلماء ، كما رد عليه كثير من العلماء والمفكرين أزهريين وغير أزهريين (١) .

كان لا بد إذن من تأكيد الوقوف فى وجه العلمانية ودعاتها ومبرريها ، بتأكيد شمول الإسلام ، وإبراز هذا الجانب الحى من أحكامه وتعاليمه : جانب الدولة ، وتنظيمها وتوجيهها بأحكامه وآدابه ، وإعلان أن ذلك جزء لا يتجزأ من نظام الإسلام .

* *

● الدليل من نصوص الإسلام :

ولم يكن هذا ابتكاراً من الحركة الإسلامية ومؤسسها ودعاتها . بل هو ما تنطق به نصوص الإسلام القاطعة ، ووقائع تاريخه الثابتة ، وطبيعة دعوته الشاملة .

أما نصوص الإسلام فحسبنا منها آيتان من سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالعَدْلِ ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (٢) .

فالخطاب فى الآية الأولى للولاة والحكّام : أن يرعوا الأمانات ويحكموا بالعدل ، فإنَّ إضاعة الأمانة والعدل نذير بهلاك الأمة وخراب الديار . ففى الصحيح : « إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظروا الساعة » . قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (٣) .

---

(١) ممن ردوا عليه العلامة المجاهد محمد الخضر حسين ، شيخ الأزهر الأسبق فى كتاب سماه « نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم » ، والعلامة الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى مصر فى زمنه .

(٢) النساء : ٥٨ - ٥٩

(٣) رواه البخارى فى كتاب العلم (حديث ٥٩ الفتح : ١/ ١٤١) عن أبى هريرة . وكرره فى كتاب « الرقاق » .

OBEIKAN.COM

والخطاب فى الآية الثانية للرعية المؤمنين : أن يطيعوا « أُولى الأمر » بشرط أن يكونوا « منهم » وجعل هذه الطاعة بعد طاعة الله وطاعة الرسول ، وأمر عند التنازع برد الخلاف إلى الله ورسوله ، أى إلى الكتاب والسُّنَّة . وهذا يفترض أن يكون للمسلمين دولة تهيمن وتُطاع ، وإلا لكان هذا الأمر عبثاً .

وفى ضوء الآيتين المذكورتين ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه المعروف « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » والكتاب كله مبنى على الآيتين الكريمتين .

وإذا ذهبنا إلى السُّنَّة ، رأينا الرسول ﷺ يقول : « مَن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » [1] . ولا ريب أنَّ من المحرَّم على المسلم أن يبايع أى حاكم لا يلتزم بالإسلام . فالبيعة التى تنجيه من الإثم أن يبايع مَن يحكم بما أنزل الله .. فإذا لم يوجد ذلك فالمسلمون آثمون حتى يتحقق الحكم الإسلامى ، وتتحقق به البيعة المطلوبة . ولا ينجى المسلم من هذا الإثم إلا أمران : الإنكار - ولو بالقلب - على هذا الوضع المنحرف المخالف لشريعة الإسلام ..

والسعى الدائب لاستئناف حياة إسلامية قويمة ، يوجهها حكم إسلامى صحيح .

وجاءت عشرات الأحاديث الصحيحة عن الخلافة والإمارة والقضاء والأئمة وصفاتهم وحقوقهم من الموالاة والمعاونة على البر ، والنصيحة لهم وطاعتهم فى المنشط والمكره ، والصبر عليهم ، وحدود هذه الطاقة وهذا الصبر ، وتحديد واجباتهم من إقامة حدود الله ورعاية حقوق الناس ، ومشاورة أهل الرأى ، وتولية الأقوياء الأمناء ، واتخاذ البطانة الصالحة ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. إلى غير ذلك من أمور الدولة وشئون الحكم والإدارة والسياسة .

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر فى كتاب الإمارة - حديث رقم (١٨٥١) .

OBEIKAN.COM

ولهذا رأينا شئون الأمة والخلافة تُذكر فى كتب العقائد وأصول الدين ، كما رأيناها تُذكر فى كتب الفقه ، كما رأينا كتباً خاصة بشئون الدولة الدستورية والإدارية والمالية والسياسية ، كالأحكام السلطانية للماوردى ، ومثله لأبى يعلى ، والغياثى لإمام الحرمين ، والسياسة الشرعية لابن تيمية ، وتحرير الأحكام لابن جماعة ، والخراج لأبى يوسف ، ومثله ليحيى بن آدم ، والأموال لأبى عبيد ، ومثله لابن زنجويه . . . وغير ذلك مما أُلِّف ليكون مرجعاً للقضاة والحكَّام كالطُرق الحكمية ، والتبصرة ، ومعين الحكَّام . وما شابهها .

❊ ❊

● الدليل من تاريخ الإسلام :

أما تاريخ الإسلام . . فينبئنا أن رسول الله ﷺ سعى بكل ما استطاع من قوة وفكر - مؤيَّداً بهداية الوحى - إلى إقامة دولة للإسلام ، ووطن لدعوته ، خالص لأهله ، ليس لأحد عليهم فيها سلطان ، إلا سلطان الشريعة . ولهذا كان يعرض نفسه على القبائل ليؤمنوا به ويمنعوه ويحموا دعوته ، حتى وفَّق الله « الأنصار » من الأوس والخزرج إلى الإيمان برسالته ، فلما انتشر فيهم الإسلام جاء وفد منهم إلى موسم الحج مكوَّن من ٧٣ رجلاً وامرأتين ، فبايعوه - صلى الله عليه وسلم - على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ، وعلى السمع والطاعة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . إلخ . . فبايعوه على ذلك . . وكانت الهجرة إلى المدينة ليست إلا سعياً لإقامة المجتمع المسلم المتميِّز ، تشرف عليه دولة مسلمة متميزة .

كانت « المدينة » هى « دار الإسلام » وقاعدة الدولة الإسلامية الجديدة ، التى يرأسها رسول الله ﷺ فهو قائد المسلمين وإمامهم ، كما إنه نبيهم ورسول الله إليهم .

وكان الانضمام إلى هذه الدولة ، لشد أزرها ، والعيش فى ظلالها ، والجهاد تحت لوائها ، فريضة على كل داخل فى دين الإسلام حينذاك . فلا

OBEIKAN.COM

يتم إيمانه إلا بالهجرة إلى دار الإسلام ، والخروج من دار الكفر والعداوة للإسلام ، والانتظام فى سلك الجماعة المؤمنة المجاهدة التى رماها العالَم عن قوس واحدة . يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وِلاَيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ ﴾ (١) . ويقول فى شأن قوم :

﴿ فَلا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٢) .

كما نزل القرآن الكريم يندد أبلغ تنديد بأولئك الذين يعيشون مختارين فى دار الكفر والحرب ، دون أن يتمكنوا من إقامة دينهم وأداء واجباتهم وشعائرهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ، فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ (٣) .

وعند وفاة النبى ﷺ كان أول ما شغل أصحابه رضى الله عنهم ، أن يختاروا « إماماً » لهم ، حتى إنهم قدَّموا ذلك على دفنه - صلى الله عليه وسلم - فبادروا إلى بيعة أبى بكر ، وتسليم النظر إليه فى أمورهم ، وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ، وبهذا الإجماع التاريخى ابتداءً من الصحابة والتابعين - مع ما ذكرنا من النصوص - استدل علماء الإسلام على وجوب نصب الإمام الذى هو رمز الدولة الإسلامية وعنوانها .

ولم يعرف المسلمون فى تاريخهم انفصالاً بين الدين والدولة إلا عندما نجم

---

(١) الأنفال : ٧٢

(٢) إن بديل الهجرة إلى الدولة المسلمة هو الانضمام إلى الجماعة المسلمة التى تعمل لإقامة دولة الإسلام ، فهو فريضة على كل مسلم بحسب وسعه - والآية من سورة النساء : ٨٩ (٣) النساء : ٩٧ - ٩٩

قرن العلمانية فى هذا العصر ، وهو ما حذر الرسول ﷺ منه ، وأمر بمقاومته كما فى حديث معاذ : « ألا إنَّ رحى الإسلام دائرة ، فدوروا مع الإسلام حيث دار ، ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان (أى الدين والدولة) فلا تفارقوا الكتاب . ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم ، فإن عصيتموهم قتلوكم ، وإن أطعتموهم أضلوكم » . قالوا : وماذا نصنع يا رسول الله ؟ قال : « كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم : نُشِروا بالمناشير ، وحُملوا على الخُشب . موت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله »[1] .

* *

● الدليل من طبيعة الإسلام :

أما طبيعة الإسلام ورسالته ، فذلك أنه دين عام ، وشريعة شاملة ، وشريعة هذه طبيعتها لا بد أن تتغلغل فى كافة نواحى الحياة ، ولا يتصوّر أن تهمل شأن الدولة ، وتدعها للمتحللين والملحدين ، أو الفسقة ، يديرونها تبعاً للهوى .

كما إن هذا الدين يدعو إلى التنظيم وتحديد المسئولية ، ويكره الاضطراب والفوضى فى كل شىء ، حتى رأينا الرسول ﷺ يأمرنا فى الصلاة أن نسوِّى الصفوف وأن يؤمَّنا أعلمنا ، وفى السفر يقول : أمِّروا أحدكم .

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه فى مسنده عن سويد بن عبد العزيز ، وهو ضعيف ، وأحمد بن منيع ورواته ثقات كما قال البوصيرى فى « الإتحاف » . انظر : المطالب العالية لابن حجر بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى - نشر أوقاف الكويت جـ ٤ حديث (٤٤٠٨) ، ورواه الطبرانى ، وفيه يزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ ، وثَّقه ابن حبان وغيره وضعَّفه جماعة ، وبقية رواته ثقات . انظر : مجمع الزوائد للهيثمى : ٢٣٨/٥

OBEIKAN.COM

يقول الإمام ابن تيمية فى « السياسة الشرعية » : يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها . فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع ، لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد عند الاجتماع من رأس . حتى قال النبى ﷺ : « إذا خرج ثلاثة فى سفر ، فليؤمّروا أحدهم » (رواه أبو داود من حديث أبى سعيد وأبى هريرة) (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : « لا يحل لثلاثة أن يكونوا بفلاة من الأرض إلا أمَّروا عليهم أحدهم » فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع .

« ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل ، وإقامة الحج والجُمَع والأعياد ، ونُصرة المظلوم ، وإقامة الحدود ، لا تتم إلا بالقوة والإمارة . ولهذا روى : « إن السلطان ظل الله فى الأرض » . ولهذا كان السَّلَف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون : لو كانت لنا دعوة مجابة ، لدعونا بها للسلطان » (٢) . وذلك لأن الله يُصلح بصلاحه خلقاً كثيراً .

ثم إن طبيعة الإسلام باعتباره منهجاً يريد أن يسود ويقود ويُوجِّه الحياة ، ويحكم المجتمع ، ويضبط سير البَشر وفق أوامر الله ، لا يُظن به أن يكتفى بالخطابة والتذكير والموعظة الحسنة ، ولا أن يدع أحكامه ووصاياه وتعليماته فى شتَّى المجالات إلى ضمائر الأفراد وحدها ، فإذا سقمت هذه الضمائر أو ماتت ، سقمت معها وماتت تلك الأحكام والتعاليم . وقد قال الخليفة الثالث رضى الله عنه : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

---

(١) ورواه الطبرانى عن عبد الله ، ورجاله رجال الصحيح كما فى مجمع الزوائد : ٥/ ٢٤٩

(٢) السياسة الشرعية ، ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢٨/ ٣٩٠ ، ٣٩١

فمن الناس مَن يهديه الكتاب والميزان ، ومنهم مَن لا يردعه إلا الحديد والسنان . ولذا قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (١) .

قال ابن تيمية : فمن عَدَل عن الكتاب عُدِّلَ بالحديد ، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف (٢) .

وقال الإمام الغزالى : الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان ، فالدين أصل ، والسلطان حارس ، وما لا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان (٣) .

إن نصوص الإسلام لو لم تجئ صريحة بوجوب إقامة دولة للإسلام ، ولم يجئ تاريخ الرسول وأصحابه تطبيقاً عملياً لما دعت إليه هذه النصوص - لكانت طبيعة الرسالة الإسلامية نفسها تحتم أن تقوم للإسلام دولة أو دار ، يتميَّز فيها بعقائده وشعائره وتعاليمه ومفاهيمه ، وأخلاقه وفضائله ، وتقاليده وتشريعاته .

فلا غنى للإسلام عن هذه الدولة المسئولة فى أى عصر ، ولكنه أحوج ما يكون إليها فى هذا العصر خاصة . هذا العصر الذى برزت فيه « الدولة الأيديولوچية » ، وهى الدولة التى تتبنى فكرة ، يقوم بناؤها كله على أساسها ، من تعليم وثقافة وتشريع وقضاء واقتصاد ، إلى غير ذلك من الشئون الداخلية والسياسة الخارجية . كما نرى ذلك واضحاً فى الدولة الشيوعية والاشتراكية . وأصبح العلم الحديث بما وفره من تقدم تكنولوچى فى خدمة الدولة ، وأصبحت الدولة بذلك قادرة على التأثير فى عقائد المجتمع وأفكاره وعواطفه وأذواقه

---

(١) الحديد : ٢٥ (٢) مجموع الفتاوى : ٢٨/ ٢٦٤

(٣) إحياء علوم الدين : ١/ ٧١ ، كتاب « العلم » .

OBEIKAN.COM

وسلوكه بصورة فعَّالة ، لم يُعرف لها مثيل من قبل . بل تستطيع الدولة بأجهزتها الحديثة الموجهة أن تغيِّر قيم المجتمع ومُثُله وأخلاقه رأساً على عقب ، إذا لم تقم فى سبيلها مقاومة أشد .

إن دولة الإسلام « دولة فكرية » ، دولة تقوم على عقيدة ومنهج ، فليست مجرد « جهاز أمن » يحفظ الأمة من الاعتداء الداخلى أو الغزو الخارجى ، بل إن وظيفتها لأعمق من ذلك وأكبر . وظيفتها تعليم الأمة وتربيتها على تعاليم ومبادئ الإسلام ، وتهيئة الجو الإيجابى والمناخ الملائم ، لتحول عقائد الإسلام وأفكاره وتعاليمه إلى واقع عملى ملموس ، يكون قدوة لكل مَن يلتمس الهدى ، وحُجَّة على كل سالك سبيل الردى .

ولهذا يُعرِّف ابن خلدون « الخلافة » بأنها : حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ، ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به (١) .

ولهذا وصف الله المؤمنين حين يمكِّن لهم فى الأرض ، وبتعبير آخر حين تقوم لهم دولة ، فقال : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٢) .

إن شعار دولة الإسلام ما قاله ربعى بن عامر لرستم قائد الفُرس : إنَّ الله بعثنا لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

ثم إن هذه الدولة الفكرية ليست ذات صفة محلية ، ولكنها دولة ذات رسالة عالَمية ، لأن الله حمّل أمة الإسلام دعوة البَشرية إلى ما لديها من

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٢/٥١٨ ، طبعة لجنة البيان العربى بتحقيق د . على عبد الواحد وافى .

(٢) الحج : ٤١

هدى ونور ، وكلَّفها الشهادة على الناس ، والأستاذية للأمم ، فهى أمة لم تنشأ بنفسها ولا لنفسها فحسب ، بل أُخرجت للناس ، أخرجها الله الذى جعلها خير أمة وخاطبها بقوله سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .

ومن هنا وجدنا النبى ﷺ حين أُتيحت له أول فرصة - بعد صلح الحديبية - كتب إلى ملوك العالَم وأمراء الأقطار فى أركان الأرض يدعوهم إلى الله ، والانضواء تحت راية التوحيد ، وحمَّلهم إثم أنفسهم وإثم رعيتهم إذا تخلَّفوا عن ركب الإيمان ، وكان يختم رسائله بهذه الآية : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَينَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

❊ ❊

● حاجتنا إلى دولة تحتضن الإسلام :

إن أول ما تحتاج إليه الدعوة الإسلامية فى هذا العصر أن تقوم « دار للإسلام » أو « دولة للإسلام » تتبنى رسالة الإسلام عقيدة ونظاماً ، وحياة وحضارة . وتقيم حياتها كلها : المادية والأدبية ، على أساس من هذه الرسالة الشاملة ، وتفتح بابها لكل مؤمن يريد الهجرة من ديار الكفر والظلم والابتداع .

هذه الدولة المنشودة ضرورة إسلامية ، وهى أيضاً ضرورة إنسانية ، لأنها ستقدِّم للبَشرية المثل الحى ، لاجتماع الدين والدنيا ، وامتزاج المادة بالروح ، والتوفيق بين الرقى الحضارى ، والسمو الأخلاقى ، وتكون هى اللبنة الأولى لقيام دولة الإسلام الكبرى ، التى توحِّد الأمة المسلمة تحت راية القرآن ، وفى ظل خلافة الإسلام . ولكن القوى المعادية للإسلام ، تبذل جهوداً جبارة

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) آل عمران : ٦٤

OBEIKAN.COM

مستميتة دون قيام هذه الدولة فى أى رقعة من الأرض ، وإن صغرت مساحتها وقلَّ سكانها .

قد يسمح الغربيون بدولة ماركسية ، وقد يسمح الشيوعيون بدولة ليبرالية ، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك يسمحون بدولة إسلامية صحيحة الإسلام ، ولا غرو أن نراهم اليوم يوجهون رماحهم وسهامهم إلى دولة السودان ، لإعلانها التمسك بالإسلام عقيدة وشريعة . وكذلك حالوا فى الجزائر بين الإسلاميين والوصول إلى الحكم ، رغم فوزهم بالأغلبية فى انتخابات حرة فى ظل التعددية الديمقراطية .

وحين تقوم حركة إسلامية ناجحة ، يُخشى أن تتحول إلى دولة ، سرعان ما توجَّه إليها قوى الكفر - العالمية والمحلية - ضرباتها المحمومة ، من تشريد وتجويع وتعذيب وتقتيل ، وتشويه وتمويه ، ولا تكاد تفيق من ضربة حتى يباغتوها بأخرى ، لتظل دائماً فى شغل بآلامها عن آمالها ، وبمتاعبها عن مطالبها ، وبجروحها عن طموحها .

❊ ❊ ❊

OBEIKAN.COM

الدعوة إلى خير الإنسانية

لا يفهم من دعوة الإسلام إلى إقامة (أمة متميزة) بأهدافها وقِيَمها ومناهجها ، ذات رسالة متميزة ، بمقوماتها ومثلها وخصائصها : أن الإسلام دين منغلق على نفسه ، وأن أمته تعيش لنفسها ، متقوقعة على ذاتها ، لا تهتم بغيرها من الناس ، صلحوا أو فسدوا ، اهتدوا أو ضلوا ، ارتقوا أو هبطوا .

كلا ، فالإسلام منذ فجر دعوته كان رسالة عالمية ، ودعوة للناس كافة ، ورحمة لكل عباد الله ، عرباً كانوا أو عجماً ، ولكل بلاد الله ، شرقاً كانت أم غرباً ، وإلى جميع الألوان بيضاً كانوا أم سوداً .

فى القرآن المكى نقرأ آيات كريمة من كتاب الله تقرر بوضوح عالمية الدعوة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (٢) .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ : لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

﴿ قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٥) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (٦) .

وأمة الإسلام مكلفة بحمل هذه الرسالة العالمية إلى العالَم ، فلا يجوز لها أن تحتكر الخير والنور لنفسها ، بل عليها بعد أن اهتدت بنور الله أن تهدى

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ (٢) الفرقان : ١ (٣) ص : ٨٨

(٤) الأنعام : ٩٠ (٥) الأعراف : ١٥٨ (٦) سبأ : ٢٨

OBEIKAN.COM

الآخرين إليه ، وبعد أن صلحت بالإيمان والعمل الصالح أن تصلح الأمم وتدعوها إلى الخير الذى أكرمها الله به .

ولهذا وصف الله أمة الإسلام وأثنى عليها فى كتابه حين خاطبها بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (١) .

فالتعبير القرآنى بقوله : « أخرجت » يدل على أن هناك من أخرج هذه الأمة ، وهو الله جل جلاله ، فلم تنبت هذه الأمة من نفسها كنبات البرية ، بل أنبتها منبت بذر بذرتها ، وتولى رعايتها .

وهى لم تخرج لنفسها ، بل أخرجت للناس ، لهداية الناس ، ولنفع الناس ، وإصلاح الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

فهى - فى المقام الأول - أمة دعوة ورسالة مبعوثة مما بعث به رسولها إلى الناس ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » (٢) .

لهذا قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

وسواء كانت (من) فى قوله تعالى « منكم » للتجريد ، بمعنى : لتكونوا جميعاً أمة يدعون إلى الخير ، كما تقول : ليكن لى منك الصديق الوفى ، ليكن منك الأسد الهصور . . أى لتكن أنت . أم كانت (من) للتبعيض ، بمعنى : كونوا منكم أمة أى جماعة قوية مترابطة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف . . إلخ . . فعلى كلا المعنيين : الأمة هى المسؤولة عن الدعوة

---

(١) آل عمران : ١١٠

(٢) رواه البخارى والترمذى والنسائى فى كتاب الطهارة عن أبى هريرة .

(٣) آل عمران : ١٠٤

والآمر والنهى ، ولو بتكوين هذه الجماعة وتقويتها وإمدادها وتهيئتها لوظيفتها ، ومراقبتها فى أدائها ، ولهذا خوطبت بهذا التكليف .

وهذا ما فقهه الصحابى الكريم ربعى بن عامر - رضىّ الله عنه - حين سأله رستم قائد جيوش الفرس فى معركة القادسية : من أنتم ؟ فقال له فى عزة مؤمنة ، وفى إيمان عزيز : نحن قوم ابتعثنا الله ، لنخرج من نشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا ، إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

فلخص هذا الصحابى - الذى لم يتخرج فى جامعة ، ولم ينتب فى الكتب ، ولم يختلف إلى المعلمين - الأهداف الكلية الكبرى للإسلام فى هذه الكلمات الموجزة ، وإنما تعلمها فى المدرسة المحمدية ، التى خرجت هذه الصفوة من البشر ، وهذه النماذج الربانية التى لم تر عين الدنيا مثلها .

كانت رسالة الإسلام العالمية (رحمة عامة) كما وصفها الله ، ودعوة إلى خير الإنسانية ، وهذه الرحمة أو هذا الخير يتجلى فى جملة مبادئ أو قيم عليا دعا إليها الإسلام أهمها وأبرزها ما يلى :

١ - تحرير الإنسان من العبودية للإنسان :

أول هذه المبادئ : أن الإسلام - بدعوته إلى التوحيد الخالص ، ومقاومته للشرك بكل ألوانه ومستوياته - حرر الإنسان من العبودية للإنسان ، كما حرره من العبودية للأشياء ، أو للأوهام ، أو للذات .

أسقط الإسلام الآلهة المزيفين الذين قدسهم الناس ، واتخذوهم أرباباً من دون الله أو مع الله ، سواء كانوا من رجال الدين أم من رجال الدنيا والسلطان ، كما قال تعالى فى شأن أهل الكتاب : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٣١

OBEIKAN.COM

وكانت الآية التى ختم بها الرسول الكريم رسائله إلى قيصر والمقوقس والنجاشى ، وغيرهم من أمراء النصارى قول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ ﴾ (١) .

وكانت هذه الكلمة « لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » إيذاناً بميلاد جديد للبشرية ، فلا يتأله بعضهم على بعض ، ولا ينحنى بعضهم لبعض ، ولا يسجد بعضهم لبعض ، ارتفعت الجباه ، فلا تسجد إلا لخالقها ، واستقامت الظهور فلا تركع إلا لبارئها ، ، وعز الناس فلا يذلون إلا لله الواحد القهار .

الله وحده هو الذى تتجه إليه القلوب راجية خائفة ، ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ وهو الذى تمتد إليه الأيدى والألسن سائلة ضارعة ، وهو الذى يملك وحده العطاء والمنع ، والخفض والرفع ، والحياة والموت .

وهو وحده الذى يملك حق التشريع المطلق للبشر ، بحكم خلقهم إياهم ، وإمدادهم بالنعم التى لا تحصى ، فهو الذى يملك أن يحرم عليهم ، وأن يحل لهم ، فهو الذى (له الحكم) ، و(له الخلق والأمر) ، ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ ؟ (٢) .

٢ - الأخوة والمساواة الإنسانية :

ومن ثمار التوحيد الذى دعا إليه الإسلام : الأخوة البشرية ، ومن لوازمها : المساواة الإنسانية .

وهذه الأخوة مبنية على أمرين :

الأول : أن الناس جميعاً ، بمقتضى دعوة التوحيد ، عبيد لرب واحد ، هو الذى خلقهم فسواهم ، فهم متساوون فى مرتبة العبودية لله .

---

(١) آل عمران : ٦٤ (٢) الأنعام : ١١٤

والثانى : أنهم جميعاً أبناء لأب واحد ، فهم - مهما اختلفت ألوانهم وتباعدت أوطانهم ، وتباينت ألسنتهم وتفاوتت طبقاتهم - أبناء آدم . فهم متساوون فى مرتبة البنوة لآدم .

وهذا ما بلغه النبى ﷺ للأمة فى حجة الوداع حين قال فى جموع الناس : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب : لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » (١) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) .

وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم أن النبى ﷺ كان يقول فى دبر كل صلاة هذه الدعوات الثلاث :

- « اللَّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك له » .

- « اللَّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه ، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك » .

- « اللَّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة » .

فهذا الدعاء النبوى الكريم يتضمن شهادات أساسية ثلاثاً : أولاها : شهادة لله بالوحدانية ، وثانيها : شهادة لمحمد بالعبودية والرسالة . وثالثها : شهادة للعباد كلهم بأنهم إخوة ، فهى أخوّة إنسانية عامة ، والأخوة تتكون من عناصر ثلاثة : المحبة ، والمساواة ، والتعاون .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده : ٥/ ٤١١ ، عن أبى نضرة عمن سمع خطبة النبى ﷺ فى وسط أيام التشريق ، وصحّحه الألبانى فى تخريج الحلال والحرام .

(٢) الحجرات : ١٣

وقد يقول بعض الناس : إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) ، ورسوله يقول : « المسلم أخو المسلم » فاعتبر الأخوة بالدين والإيمان لا بغيرها .

ونقول : إن الأخوة الدينية القائمة على الإيمان هى أخص أنواع الأخوة وأعمقها ، ولكنها لا تنافى وجود الأنواع الأخرى من الأخوة ، مثل الأخوة الوطنية والقومية ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (٢) ، ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ (٣) ، ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ (٤) ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ : أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ (٦) ، فأثبت القرآن هذه الأخوة ، بين هؤلاء الرُّسُل ، وأقوامهم ، وهم مكذِّبون لهم ، متمردون على رسالتهم ، لأنهم منهم ، وليسوا غرباء عنهم ، فهى أخوّة قومية .

وهناك الأخوة البَشرية بين أبناء آدم عامة ، وهى التى شهد بها الرسول فى حديثه السابق .

٣ - العدل لجميع الناس :

ومما دعا إليه الإسلام لخير الإنسانية : إقامة العدل بين الناس كل الناس ، فليس عدلاً للعرب وحدهم ، إنما هو عدل للناس كلهم جميعاً .

يقول تعالى فى بيان أهداف الرسالات السماوية : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٧) ، وهكذا تبين أن إرسال الرُّسُل ، وإنزال الكتب إنما كانا لتحقيق هدف أساسى ، هو : أن يقوم (الناس) بالقسط ، وهو العدل ، الذى به يعطى كل ذى حق حقه .

---

(١) الحجرات : ١٠ (٢) هود : ٥٠ (٣) هود : ٦١
(٤) هود : ٨٤ (٥) الشعراء : ١٠٦ (٦) الشعراء : ١٦١
(٧) الحديد : ٢٥

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (١) .

هكذا بهذا التعميم « إذا حكمتم بين (الناس) لا بين المسلمين فحسب .

وقد أنزل الله تسع آيات فى سورة النساء عتاباً للرسول الكريم حين هم أن يدافع عن قوم من المسلمين الضعفاء أو من المنافقين ، اتهموا يهودياً ظلماً بالسرقة ، ولم يكن هو بالسارق ، وإنما هم السراق . قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً . . . ﴾ (٢) الآيات .

وقد أمر الله المؤمنين أن يقوموا بالقسط شهداء لله ، لا يمنعهم من ذلك عاطفة حب لقريب ، أو بغض لبعيد ، فالعدل فوق عواطف المحبة والكره ، ويجب أن يكون لله .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (٣) . فهذا هو العدل مع من تحب ولو كان أحد والديك أو أقرب أقربائك ، بل لو كان نفسك ذاتها .

ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ (٤) ، فهذا هو العدل مع من تكره من الناس ، ممن يحملون لهم (الشنآن) . والشنآن هو : شدة البغض والعداوة . ولكن هذا لا يجوز أن يحمل المؤمنين على الظلم ، فإن الله لا يحب الظالمين ، ولا يهديهم ، ولن يفلحوا أبداً ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

---

(١) النساء : ٥٨ (٢) النساء : ١٠٥ - ١١٤
(٣) النساء : ١٣٥ (٤) المائدة : ٨

وقد طبق المسلمون هذا العدل مع الشعوب كلها ، فى عصر النبوة ، وفى العصور الراشدة ، وفى القرون الأولى - خير القرون - بصفة عامة ، ووجدنا عمر بن الخطاب يأمر لرجل قبطى مصرى بالقصاص من ابن الوالى على مصر : عمرو بن العاص . ويقول لعمرو كلمته التاريخية : يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

وهذه الكلمة التى قالها عمر على البديهة ، أصبحت تفتح بها مواثيق حقوق الإنسان ودساتير الأمم المتقدمة فى العصر الحديث .

ومما يجب التنويه به هنا : أن الإسلام أشعر جماهير الناس ، أن العدل فريضة لا تهاون فيها ، وأن كل مظلوم سيأخذ حقه ممن ظلمه ، فلا غرو أن سافر الرجل من الفسطاط إلى المدينة - وهو سفر شاق طويل - ليطالب بحقه . وقد كان فى عهد الرومان يُضرب ويسلب وتنتهك حرماته ، فلا يرفع بذلك رأساً ، لأنه لا يجد من يشكو إليه ، ولو وجده فلن يستمع إليه . . وفى عهد علىّ بن أبى طالب حكم قاضيه شريح لنصرانى على أمير المؤمنين ، لأنه لم يكن لديه بينة ، وهنا لم يملك النصرانى ، إلا أن يعلن إسلامه على الملأ . ويشهد أن علياً هو صاحب الحق ، ويقول : هذه أحكام أنبياء !

والأمثلة على ذلك كثيرة ، والتاريخ حافل بالشواهد .

٤ - السلام العالمى :

ومما دعا إليه الإسلام كذلك : السلام بين البَشر ، بدل الحروب والنزاع .

وربما كان هذا مستغرباً لدى بعض الناس ، فقد عرفوا أن الإسلام دين الجهاد فى سبيل الله ، وأن الجهاد فى سبيل الله أفضل الأعمال عند الله ، وإن الصائم الذى لا يفطر والقائم الذى لا يفتر ، لا يبلغ ثواب المجاهد فى سبيل الله .

وهذا صحيح ، ولكن الجهاد فى الإسلام إنما فرض للدفاع عن الدعوة إذا

اعتدى عليها ، أو فتن أهلوها ، ولقتال من يقاتل المسلمين ، ولإنقاذ المستضعفين فى الأرض ، وتأديب الناكثين للعهود ، المتعدين للحدود ، ولم يشرع الجهاد للعدوان ، على مسالم برئ لم يؤذ المسلمين ، ولم يقاتلهم أو يظاهر عدوهم عليهم .

وهذا واضح فى القرآن : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

والفتنة : تعنى اضطهاد الناس وتعذيبهم من أجل عقيدتهم .

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً ﴾ (٣) .

﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ (٤) .

﴿ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٥) .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦) .

وتاريخ الدعوة الإسلامية يثبت أن الإسلام أوصى اتباعه بالصبر على الأذى

---

(١) البقرة : ١٩ (٢) البقرة : ١٩٣ (٣) النساء : ٧٥
(٤) النساء : ٩٠ (٥) التوبة : ١٣ (٦) الأنفال : ٦١

OBEIKAN.COM

ثلاثة عشر عاماً فى مكة ، كان يقول لهم : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (١) ، ﴿ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ (٢) ، وهم يقولون له : لنا ديننا وليس لك دينك ، ولنا عملنا وليس لك عملك ، وصبوا عليه وعلى أصحابه سياط العذاب ، واشتدوا عليهم بالأذى فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، واضطر الإسلام بعد هذه المدة أن يأذن لأهله بالدفاع عن أنفسهم : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا : رَبُّنَا اللهُ ﴾ (٣) .

وكانت غزوات وسرايا اضطر المسلمون أن يدخلوها وهم كارهون ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وفى غزوة بدر وصف الله حال المؤمنين بقوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (٥) .

لم يكن المسلمون متعطشين للدماء كما يصورهم أعداء الإسلام ، بل كانوا مدافعين عن دين أستبيحت حرماته ، وطرد أتباعه من وطنهم ، وصودرت أموالهم ، وغُزُوا فى عقر دارهم ، كما فى أُحُد ، والخندق . ومع هذا يعقب القرآن على غزوة الخندق فيقول : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ (٦) .

فهذا التعليق القرآنى ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ يبين أن هذه نعمة عظيمة من الله تعالى للمؤمنين : أن رد أعداءهم عنهم ولم يحققوا هدفهم من غزوتهم ، وأن الله كفاهم القتال ، وأراحهم من تبعاته وآثاره .

---

(١) الكافرون : ٨ (٢) يونس : ٤١ (٣) الحج : ٣٩
(٤) البقرة : ٢١٦ (٥) الأنفال : ٥ (٦) الأحزاب : ٢٥

وفى غزوة الحديبية يعقب القرآن على ما تم من صلح بين الرسول والمشركين ، فينزل فيه (سورة الفتح) وفيها يقول الله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ (١) ، فيقول الصحابة : أفتح هو يا رسول الله ؟ فيقول : نعم .

ويمتن الله على المسلمين بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

فانظر كيف امتن على المؤمنين بكف أيديهم عن المشركين ، كما كف أيدى المشركين عنهم ، دلالة على أن السلام فى ذاته نعمة يذكرها لهم فى معرض الامتنان .

ويقول رسول الله ﷺ : « أقبح الأسماء حرب ومرة » (٣) ، فدل على أنه يكره حتى كلمة (حرب) . . وقد كان أهل الجاهلية يسمون بذلك أبناءهم ، فنبه المسلمين على قبح هذا الاسم ، ولا يمكن أن يصدر ذلك من رجل محب للحرب ، متعطش للدم ، كما يقول الذين لا يعلمون ، أو الذين يتبعون أهواءهم .

٥ - التسامح مع غير المسلمين :

ومن المبادئ والقِيَم التى دعا إليها الإسلام هنا : التسامح مع غير المسلمين ، والتعامل معهم بروح إنسانية عالية ، لا تتعصب ولا تحقد على من خالفها .

وهذا مع كل من خالف الإسلام من غير المسلمين ، ولكن لأهل الكتاب - من اليهود والنصارى - معاملة خاصة ، باعتبارهم أهل دين سماوى فى الأصل ، وينتسبون جميعاً إلى أبى الأنبياء إبراهيم ، ولهذا سماهم القرآن (أهل الكتاب) وأباح أكل ذبائحهم ، وتزوج نسائهم . كما قال تعالى :

---

(١) الفتح : ١ (٢) الفتح : ٢٤

(٣) رواه أبو داود فى « الأدب » عن أبى وهب الجشمى (٤٩٥٠) ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضا ، وعلل الإمام الخطابى قبح اسم (حرب) لما فى الحرب من المكاره .

OBEIKAN.COM

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (١) .

والمصاهرة أحد رابطين أساسيين ربط بهما بين البَشر ، كما قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ (٢) .

كما أن الزواج فى نظر القرآن يقوم على دعائم من السكون والمودة والرحمة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٣) .

ومعنى زواج المسلم من كتابية أن يكون أصهاره وأجداد أولاده وجداتهم وأخوالهم وخالاتهم ، وأولاد أخوالهم وخالاتهم من أهل الكتاب ، وهؤلاء لهم حقوق صلة الرحم وذوى القربى التى يفرضها الإسلام .

ولا نجد فى السماحة مع المخالف فى الدين أرحب ولا أعلى من هذا الأفق الذى وجدناه فى شريعة الإسلام .

وقد فرق القرآن تفريقاً واضحاً فى المعاملة : بين صنفين من غير المسلمين : صنف (المحاربين) المقاتلين لهم فى الدين ، الذين شردوهم من ديارهم ، وعاونوا على تشريدهم ، وصنف آخر مسالم لهم لم يشارك فى شىء من هذه الأعمال . وذلك فى آيتين كريمتين تعتبران دستوراً محكماً فى تحديد العلاقة بغير المسلمين ، يقول تعالى : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ . . وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤) . والبر هو : الخير ، والقسط هو : العدل ، وقد نزلت

---

(١) المائدة : ٥
(٢) الفرقان : ٥٤
(٣) الروم : ٢١
(٤) الممتحنة : ٨ ، ٩

هاتان الآيتان فى شأن المشركين الوثنيين ، كما دلت على ذلك أسباب نزول السورة . فأهل الكتاب أولى بالبر والقسط من المشركين .

ثم إن المعاهدين صنفان :

(أ) من لهم عهد مؤقت ، وهؤلاء يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم .

(ب) والثانى من لهم عهد دائم ومؤبد ، وهم الذين يسميهم المسلمون « أهل الذمة » بمعنى أن لهم ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، وذمة جماعة المسلمين . وهم الذين قال فيهم الفقه الإسلامى : لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، أى فى الجملة إلا ما اقتضته طبيعة الاختلاف الدينى .

وأهل الذمة يحملون « جنسية دار الإسلام » وبتعبير آخر : هم مواطنون فى الدولة الإسلامية .

فليست عبارة « أهل الذمة » عبارة ذم أو تنقيص ، كما قد يتوهم بعض الناس ! بل هى عبارة توحى بوجوب الرعاية والوفاء ، تديناً وامتثالاً لشرع الله .

وإذا كان الإخوة المسيحيون يتأذون من هذا المصطلح ، فليغيَّر أو يحذف ، فإن الله لم يتعبدنا به ، وقد حذف سيدنا عمر رضى الله عنه ما هو أهم منه ، وهو لفظ « الجزية » ، رغم أنه مذكور فى القرآن ، وذلك استجابة لعرب بنى تغلب من النصارى ، الذين أنفوا من هذا الاسم ، وطلبوا أن يؤخذ منهم ما يؤخذ باسم الصدقة ، وإن كان مضاعفاً . فوافقهم عمر ، ولم ير فى ذلك بأساً ، وقال : هؤلاء القوم حمقى ، رضوا بالمعنى ، وأبو الاسم [1] .

وهذا تنبيه من الفاروق على أصل مهم ، وهو النظر إلى المقاصد والمعانى ، لا إلى الألفاظ والمبانى ، والاعتبار بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين . ومن هنا نقول : إنه لا ضرورة للتمسك بلفظ « الجزية » الذى يأنف منه

---

(١) انظر : كتابنا « فقه الزكاة » : ٢/٧٠٨

OBEIKAN.COM

إخواننا النصارى فى مصر وأمثالهم فى البلاد العربية والإسلامية ، والذين امتزجوا بالمسلمين ، فأصبحوا يكونون نسيجاً قومياً واحداً . فيكفى أن يدفعوا « ضريبة » مالية ، كما يدفع المسلمون « الزكاة » ، وأن يشتركوا بأنفسهم فى الدفاع عن الأمة والوطن ، كما يشترك إخوانهم من المسلمين .

وقد رأينا الإمام الأوزاعى يقف مع جماعة من أهل الذمة فى لبنان ضد الأمير العباسى قريب الخليفة .

وقد رأينا الإمام ابن تيمية يخاطب تيمور لنك فى فكاك الأسرى عنده ، فيعرض عليه أن يفك أسرى المسلمين وحدهم ، فيأبى إلا أن يفرج عن أهل الذمة معهم .

* *

● أعلى درجات التسامح عند المسلمين وحدهم :

ثم إن التسامح الدينى والفكرى له درجات ومراتب :

فالدرجة الدنيا من التسامح : أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته ، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك .

والدرجة الوسطى من التسامح : أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب ، ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعل أمر يعتقد حرمته . فإذا كان اليهودى يعتقد حرمة العمل يوم السبت ، فلا يجوز أن يكلف بعمل فى هذا اليوم ؛ لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه (١) .

وإذا كان النصرانى يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد ، فلا يجوز أن يمنع ذلك فى هذا اليوم .

---

(١) فى غاية المنتهى وشرحه من كتب الحنابلة : « ويحرم إحضار يهودى فى سبته ، وتحريمه باق بالنسبة إليه ، فيستثنى شرعاً من عمل فى إجارة ، لحديث النسائى والترمذى وصححه : « وأنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت » : ٢/ ٦٠٤

OBEIKAN.COM

والدرجة التى تعلو هذه فى التسامح : ألا تضيق على المخالفين فيما يعتقدون حله فى دينهم أو مذهبهم ، وإن كنت تعتقد أنه حرام فى دينك أو مذهبك .

وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة ، إذ ارتفعوا إلى الدرجة العليا من التسامح .

فقد التزموا احترام كل ما يعتقد غير المسلم أنه حلال فى دينه ، ووسعوا له فى ذلك ، ولم يضيقوا عليه بالمنع والتحريم ، وكان يمكنهم أن يحرموا ذلك ، مراعاة لشريعة الدولة ودينها ، ولا يتهموا بكثير من التعصب أو قليل ؛ ذلك لأن الشىء الذى يجله دين من الأديان ليس فرضاً على أتباعه أن يفعلوه .

فإن كان دين النصرانى يحل له أكل الخنزير ، فإنه يستطيع أن يعيش عمره دون أن يأكل الخنزير ، وفى لحوم البقر والغنم والطير متسع له .

ومثل ذلك الخمر ، فإذا كان بعض الكتب المسيحية قد جاء بإباحتها ، أو إباحة القليل منها لإصلاح المعدة ، فليس من فرائض المسيحية أن يشرب المسيحى الخمر ، بل إن بعض المسيحيين يعتقدون حرمة الخمر فى ديانتهم .

فلو أن الإسلام قال للذميين : دعوا شرب الخمر ، وأكل الخنازير ، مراعاة لشعور إخوانكم المسلمين ، لم يكن عليهم فى ذلك أى حرج دينى ؛ لأنهم إذا تركوا هذه الأشياء لم يرتكبوا فى دينهم منكراً ، ولا أخلوا بواجب مقدس ، ومع هذا لم يقل الإسلام ذلك ، ولم يشأ أن يضيق على غير المسلمين فى أمر يعتقدون حله ، وقال للمسلمين : اتركوهم وما يدينون !

* *

● روح التسامح عند المسلمين :

على أن هناك شيئاً آخر لا يدخل فى نطاق الحقوق التى تنظمها القوانين ، ويلزم بها القضاء ، وتشرف على تنفيذها الحكومات .

ذلك هو « روح السماحة » التى تبدو فى حسن المعاشرة ، ولطف المعاملة ،

ورعاية الجوار ، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان ، وهى الأمور التى تحتاج إليها الحياة اليومية ، ولا يغنى فيها قانون ولا قضاء . وهذه روح لا تكاد توجد فى غير المجتمع الإسلامى .

تتجلى هذه السماحة فى مثل قول القرآن فى شأن الوالدين المشركين اللذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (١) .

وفى ترغيب القرآن فى البر والإقساط إلى المخالفين الذين لم يقاتلوا المسلمين فى الدين كما فى آية الممتحنة (٢) .

وفى قول القرآن يصف الأبرار من عباد الله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ (٣) ولم يكن الأسير حين نزلت الآية إلا من المشركين .

وفى قول القرآن يجيب عن شبهة بعض المسلمين فى مشروعية الإنفاق على ذويهم وجيرانهم من المشركين المصرّين : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ﴾ (٤) .

وقد روى محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ومدون مذهبه : أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى أهل مكة مالاً لما قحطوا ليوزع على فقرائهم (٥) ، هذا على الرغم مما قاساه من أهل مكة من العنت والأذى هو وأصحابه .

وروى أحمد والشيخان عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمت أمى وهى مشركة ، فى عهد قريش إذ عاهدوا (٦) ، فأتيت النبى ﷺ فقلت :

---

(١) لقمان : ١٥
(٢) الممتحنة : ٨
(٣) الإنسان : ٨
(٤) البقرة : ٢٧٢
(٥) شرح السير الكبير : ١/ ١٤٤
(٦) تعنى فى فترة صلح الحديبية .

يا رسول الله ؛ إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟! قال : « نعم ، صلى أمك » (١) .

وتتجلى هذه السماحة كذلك فى معاملة الرسول ﷺ لأهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى ، فقد كان يزورهم ويكرمهم ، ويحسن إليهم ، ويعود مرضاهم ، ويأخذ منهم ويعطيهم .

وذكر ابن إسحاق فى السيرة : أن وفد نجران - وهم من النصارى - لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة ، دخلوا عليه مسجده بعد العصر ، فكانت صلاتهم ، فقاموا يصلون فى مسجده ، فأراد الناس منعهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوهم » فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم .

* *

● الأساس الفكرى لتسامح المسلمين :

وأساس النظرة المتسامحة التى تسود المسلمين فى معاملة مخالفيهم فى الدين يرجع إلى الأفكار والحقائق الناصعة التى غرسها الإسلام فى عقول المسلمين وقلوبهم ، وأهمها :

١ - اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان ، أياً كان دينه أو جنسه أو لونه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾ (٢) وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية .

ومن الأمثلة العملية : ما رواه البخارى عن جابر بن عبد الله : أن جنازة مرت على النبى ﷺ فقام لها واقفاً ، فقيل له : يا رسول الله ؛ إنها جنازة يهودى ! فقال : « أليست نفساً » ؟! ، بلى ولكل نفس فى الإسلام حرمة ومكان ، فما أروع الموقف ، وما أروع التفسير والتعليل !

٢ - اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس فى الدين واقع بمشيئة الله تعالى ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/ ٣٤٩ (٢) الإسراء : ٧٠

OBEIKAN.COM

الذى منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَّاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (٢) .

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب ، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة ، علم الناس ذلك أو جهلوه ، ولهذا لا يفكر المسلم يوماً أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين ، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

٣ - إن المسلم ليس مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم ، أو يعاقب الضالين على ضلالهم ، فهذا ليس إليه ، وليس موعده هذه الدنيا ، إنما حسابهم إلى الله فى يوم الحساب ، وجزاؤهم متروك إليه فى يوم الدين ، قال تعالى : ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤) . . وقال يخاطب رسوله فى شأن أهل الكتاب : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ من كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٥) .

وبهذا يستريح ضمير المسلم ، ولا يجد فى نفسه أى أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر ، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه ، وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد .

---

(١) الكهف : ٢٩ (٢) هود : ١١٨ (٣) يونس : ٩٩

(٤) الحج : ٦٨ ، ٦٩ (٥) الشورى : ١٥

٤ - إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل ، ويحب القسط ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولو مع المشركين ، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين ، ولو كان الظلم من مسلم لكافر . قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « دعوة المظلوم - وإن كان كافراً - ليس دونها حجاب » (٢) .

إن سماحة الإسلام مع غير المسلمين سماحة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . وخصوصاً إذا كانوا أهل كتاب ، وبالأخصب إذا كانوا مواطنين فى دار الإسلام ، ولا سيما إذا استعربوا وتكلموا بلغة القرآن .

❊ ❊ ❊

(١) المائدة : ٨ (٢) رواه أحمد فى مسنده .

OBEIKAN.COM